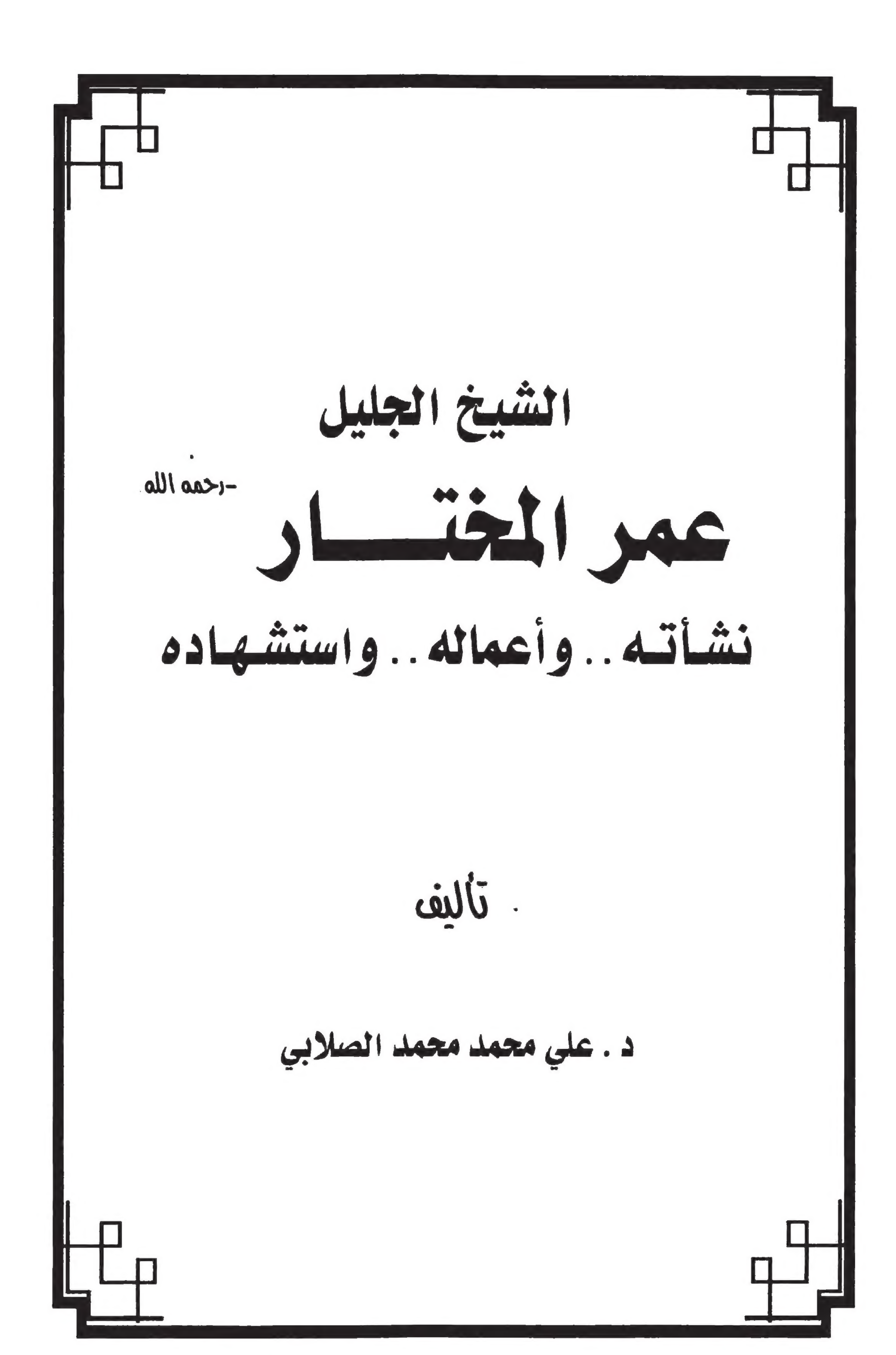


الشيخ الجليل

عمر المختـــار -رحمه الله-

نشأتـه.. وأعماله.. واستشـهاده

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي


مركز
إبصار
للنشر والتوزيع
القاهرة - العجوزة - شارع المنتصر
ebsar2015@gmail.com
00201062532813



الإهـــداء

إلى العلماء العاملين والدعاة المخلصين،

وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين

أهدي هذا الكتاب، سائلًا المولى -عز وجل- بأسمائه

الحسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا

لوجهه الكريم

قال تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

[الكهف: ١١٠].



الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع :٢٠١٥/٩٩٨٥

مركز إبصار للنشر والتوزيع
القاهرة ـ العجوزة ـ شارع المنتصر
محمول : 00201062532813
E.mail:ebsar2015@Gmail.com

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى فللّه تعالى الحمد كما ينبغي لجلاله وله الثناء كما يليق بكماله، وله الحمد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه أما بعد:

هذا الكتاب جزء من الحركة السنوسية في ليبيا ، ويتحدث عن سيرة الزعيم عمر المختار.

فيترجم الكتاب سيرة الشيخ عمر المختار منذ مولده حتى استشهاده، وعبادته وتلاوته للقرآن الكريم ، وشجاعته وكرمه، ودعوته وجهاده قبل الاحتلال الإيطالي، ومعاركه الأولى ضدها، وسفره إلى مصر للتنسيق مع الأمير إدريس في أمور البلاد والقبائل واستمرارية الجهاد، ويعيش القارئ الكريم مع عمر المختار في معاركه التي خاضها كمعركة بئر الغبي، وعقيرة الدم، وعن وسائله في تموين المجاهدين، وعن

تشكيلاته وخططه وقيادته لحرب العصابات التي أصبحت مَعْلَمًا لمن جاء بعده من قيادات حركة التحرير.

ويتحدث الكتاب عن فقد عمر المختار لكبار المجاهدين وآثار ذلك على مشاعره وأحاسيسه وموقفه من تلك الصدمات المتكررة، كاستشهاد أخيه في الدين حسين الجويفي البرعصي، وابن أخيه المختار بن محمد وعن حرصه للشهادة وإخلاصه لقضية الجهاد، وعزيمته النافذة، وصبره العظيم، وحكمته في القيادة، وفهمه للأمور ببصيرته النافذة ونظره البعيد.

ويوضح الكتاب حرص إيطاليا في دخول المفاوضات مع عمر المختار لكسب الوقت، وتفريق المجاهدين وكيف كان عمر المختار منتبهًا لأغراضهم الخبيثة؟ فكان في تلك المفاوضات واسع الأفق بعيد النظر، فاتخذ مواقف صحيحة وقوية فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه.

ويبين الكتاب حقيقة الجنرال غراسياني الذي كان عند قومه معظمًا ومقدمًا والذي أسندت إليه الحكومة الإيطالية بزعامة الدوتشي (موسليني) مهمة القضاء المبرم على حركة الجهاد مهما كلف ذلك بكل الطرق وكافة الوسائل، ولذلك أنشأ المحكمة الطائرة التي كانت تحكم على الأهالي بالموت وتصادر الأملاك لأقل شبهة وتمنحها للمرتزقة الفاشيست، فكانت تلك المحاكم تنعقد بصورة سريعة وتصدر أحكامها وتنفذ في دقائق بحضور المحكمة نفسها لتتأكد من التنفيذ قبل أن تغادر الموقع الذي انعقدت فيه لتنعقد في نفس اليوم بموقع آخر، وفتحت أبوب السجون في كل مدينة وقرية ببرقة ونصبت أعواد المشانق في كل من العقيلة وإجدابية، وبنغازي، وسلوق ، والمرج، وشحات، ودرنة، وعين الغزالة، وطبرق، ولأتفه شبهة وأقل فرية يصدر حكم الإعدام وينفذ شنقًا أو رميًا بالرصاص، وقام الجنرال غراسياني بعزل الأهالي الخاضعين لهم عن المجاهدين وأدخلهم المعتقلات الرهيبة، فيجد القارئ في هذا الكتاب حقيقة تلك المعتقلات.

وتحدث الكتاب عن عمر المختار كقائد عسكري له القدرة على تغيير خططه وتطوير أساليبه القتالية مع ما يتمشى مع المراحل التي يخوضها حتى أن عدوه غراسياني اعترف

بذلك فقال: (بالرغم من أبعاد النواجع والسكان الخاضعين لحكمنا يستمر عمر المختار في المقاومة بشدة ويلاحق قواتنا في كل مكان).

وقال أيضًا: (عمر المختار قبل كل شيء لن يسلم أبدًا لان طريقته في القتال ليست كالقادة الآخرين فهو بطل في إفساد الخطط وسرعت التنقل بحيث لا يمكن تحديد موقعه لتسديد الضربات له ولجنوده، ... عمر المختار يكافح... إلى أبعد حد لدرجة العجز ثم يغير خطته ويسعى دائمًا للحصول على أي تقدم مهما كان ضئيلًا بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية ماديًا ومعنويًا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا وهنا يسلم أمره لله كمسلم مخلص لدينه).

ويتعرض الكتاب للأسلاك الشائكة التي مدها الإيطاليون على طول الحدود الليبية المصرية ما يزيد عن ٣٠٠كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب بغية القضاء على حركة الجهاد التي كان يقودها المختار، ويجد القارئ الكريم في هذا الكتاب تفصيلًا دقيقًا موثقًا عن الأعمال الشنيعة القبيحة والمزرية والحاقدة التي قام بها الإيطاليون ضد الليبيين عندما احتلوا الكفرة العاصمة السنوسية الشهيرة، وكيف اهتز العالم الإسلامي لتلك الأحداث؟ وكيف كان دور الصحافة الإسلامية؟ ويبين للقارئ الكريم وثائق تاريخية مهمة بقلم شكيب ارسلان ، وجمعية الشبان المسلمين بمصر وقد وقّع عليها محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الإسلامية، وتقي الدين الهلالي، الأستاذ الأول للآداب العربية بندوة العلماء بالهند وغيرهم.

ويمضي الكتاب مع عمر المختار حتى الأيام الأخيرة من حياته، فيصف اللقاء الشهير الذي تم بين محمد أسد وعمر المختار وكيف وقع المختار في الأسر؟ ويتحدث عن مواقفه في داخل السجن التي تدل على سلامة العقيدة، ورسوخ مفهوم القضاء والقدر في نفس ذلك الشيخ الجليل، وعن عزة الإيمان التي كان يتحدث بها في لقائه مع الجنرال غراسياني وأثناء المحكمة وكيف كان يقاد إلى المشنقة وهو يتلوا قول الله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾

[سورة الفجر: ٢٧-٣٠].

إن هذا الكتاب يثبت بالحقائق التاريخية أن حياة عمر المختار مدرسة تستحق الدراسة والبحث في جوانب متعددة في شخصيته العلمية والدعوية والجهادية وصفاته الخلقية الرفيعة.

ويوضح الكتاب أحوال ليبيا بعد استشهاد عمر المختار، وعن مصير حركة الجهاد التي قادها يوسف بورحيل والمجاهدين، وعن اضطهاد واستعباد الإيطاليين لمسلمي ليبيا بعد القضاء على الحركة.

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة فصول وهي كالآتي:

المقدمة

الفصل الأول: نشأته وأعماله.

الفصل الثاني: استمرار العمليات والدخول في المفاوضة.

الفصل الثالث: الأيام الأخيرة من حياته ووقوعه في الأسر ثم إعدامه.

فلله الحمد على ما منّ به عليّ أولًا وآخرًا، واسأله سبحانه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل هذه السلسلة التاريخية لوجهه خالصة، ولعباده نافعة، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من القارئ الكريم أن ل اينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه في صالح دعائه.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب الغالمين»

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد محمد الصّلابي

١



الفصل الأول

نشأته وأعماله


صفحة فارغة

الفصل الأول

نشأته وأعماله

أولاً: مولده ونسبه ونشأته وشيوخه

ولد الشيخ الجليل عمر المختار من أبوين صالحين عام ١٨٦٢م[١]، وقيل: ١٨٥٨م، وكان والده مختار بن عمر من قبيلة المنفة من بيت فرحات، وكان مولده بالبطنان في الجبل الأخضر، ونشأ وترعرع في بيت عز وكرم، تحيط به شهامة المسلمين وأخلاقهم الرفيعة، وصفاتهم الحميدة التي استمدوها من تعاليم الحركة السنوسية القائمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

توفي والده في رحلته إلى مكة لأداء فريضة الحج، فعهد وهو في حالة المرض إلى رفيقه السيد أحمد الغرياني (شقيق شيخ زاوية جنزور الواقعة شرق طبرق) بأن يبلغ شقيقه بأنه عهد إليه بتربية ولديه عمر ومحمد، وتولى الشيخ حسين الغرياني رعايتهما محققًا رغبة والدهما، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم بالزاوية، ثم ألحق عمر المختار بالمعهد الجغبوبي لينضم إلى طلبة العلم من أبناء الإخوان والقبائل الأخرى[٢].

لقد ذاق عمر المختار -رحمه الله- مرارة اليتم في صغره، فكان هذا من الخير الذي أصاب قلبه المليء بالإيمان وحب الله ورسوله ﷺ؛ حيث التجأ إلى الله القوي العزيز في أموره كلها، وظهر منه نبوغ منذ صباه مما جعل شيوخه يهتمون به في معهد الجغبوب الذي كان منارة للعلم، وملتقى للعلماء والفقهاء والأدباء والمربين الذين كانوا يشرفون على تربية وتعليم وإعداد المتفوقين من أبناء المسلمين ليعدوهم لحمل رسالة الإسلام الخالدة، ثم يرسلوهم بعد سنين عديدة من العلم والتلقي والتربية إلى مواطن القبائل في ليبيا وإفريقيا؛ لتعليم الناس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وتعاليمه الرفيعة، ومكث في معهد

---

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، د. إدريس الحريري، ص٦٥.

(٢) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٢٦.

الجغبوب ثمانية أعوام ينهل من العلوم الشرعية المتنوعة كالفقه والحديث والتفسير، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ على أيديهم، السيد الزروالي المغربي، والسيد الجواني، والعلامة فالح بن محمد بن عبد الله الظاهري المدني وغيرهم كثير، وشهدوا له بالنباهة ورجاحة العقل، ومتانة الخلق، وحب الدعوة، وكان يقوم بما عليه من واجبات عملية أسوة بزملائه الذين يؤدون أعمالًا مماثلة في ساعات معينة إلى جانب طلب العلم، وكان مخلصًا في عمله متفانيًا في أداء ما عليه، ولم يعرف عنه زملاؤه أنه أجل عمل يومه إلى غده، وهكذا اشتهر بالجدية والحزم والاستقامة والصبر، ولفتت شمائله أنظار أساتذته وزملائه وهو لم يزل يافعًا، وكان الأساتذة يبلغون الإمام محمد المهدي أخبار الطلبة وأخلاق كل واحد منهم، فأكبر السيد محمد المهدي في عمر المختار صفاته وما يتحلى به من خلال[1]، وأصبح على إلمام واسع بشئون البيئة التي تحيط به، وعلى جانب كبير في الإدراك بأحوال الوسط الذي يعيش فيه، وعلى معرفة واسعة بالأحداث القبلية وتاريخ وقائعها، وتوسع في معرفة الأنساب والارتباطات التي تصل هذه القبائل بعضها ببعض، وبتقاليدها، وعاداتها، ومواقعها، وتعلم من بيئته التي نشأ فيها وسائل فض الخصومات البدوية وما يتطلبه الموقف من آراء ونظريات، كما أنه أصبح خبير بمسالك الصحراء وبالطرق التي كان يجتازها من برقة إلى مصر والسودان في الخارج، وإلى الجغبوب والكفرة من الداخل، وكان يعرف أنواع النباتات وخصائصها على مختلف أنواعها في برقة، وكان على دراية بالأدواء التي تصيب الماشية ببرقة ومعرفة بطرق علاجها نتيجة للتجارب المتوارثة عند البدو، وهي اختبارات مكتسبة عن طريق التجربة الطويلة، والملاحظة الدقيقة، وكان يعرف سمة كل قبيلة، وهي السمات التي توضع على الإبل والأغنام والأبقار لوضوح ملكيتها لأصحابها، فهذه المعلومات تدل على ذكاء عمر المختار وفطنته منذ شبابه[2].

ثانيًا: وصف عمر المختار

كان عمر المختار متوسط القامة يميل إلى الطول قليلًا، ولم يكن بالبدين الممتلئ أو

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٢٦.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧.

النحيف الفارغ، أجش الصوت، بدوي اللهجة، رصين المنطق، صريح العبارة، لا يمل حديثه، متزن في كلامه، تفتر ثناياه أثناء الحديث عن ابتسامة بريئة، أو ضحكة هادئة إذا ما اقتضاها الموقف، كثيف اللحية وقد أرسلها منذ صغره، تبدو عليه صفات الوقار والجدية في العمل، والتعقل في الكلام، والثبات عند المبدأ، وقد أخذت هذه الصفات تتقدم معه بتقدم السن[١].

ثالثًا: تلاوته للقرآن الكريم وعبادته

كان عمر المختار شديد الحرص على أداء الصلوات في أوقاتها، وكان يقرأ القرآن يوميًا، فيختم المصحف الشريف كل سبعة أيام منذ أن قال له الإمام محمد المهدي السنوسي: «يا عمر، وردك القرآن»، وقصة ذلك كما ذكرها محمد الطيب الأشهب، أنه استأذن في الدخول على الإمام محمد المهدي من حاجبه محمد حسن البسكري في موقع بئر السارة الواقع في الطريق الصحراوي بين الكفرة والسودان، وعندما دخل على المهدي تناول مصحفًا كان بجانبه وناوله للمختار وقال: «هل لك شيء آخر تريده؟»، فقلت له: يا سيدي، إن الكثيرين من الإخوان يقرءون أورادًا معينة من الأدعية والتضرعات أجزتوهم قراءتها، وأنا لا أقرأ إلا الأوراد الخفيفة عقب الصلوات، فأطلب منكم إجازتي بما ترون، فأجابني ﷺ بقوله: «يا عمر، وردك القرآن»، فقبّلت يده وخرجت أحمل هذه الهدية العظيمة (المصحف)، ولم أزل بفضل الله احتفظ بها في حلي وترحالي، ولم يفارقني مصحف سيدي منذ ذلك اليوم، وصرت مداومًا على القراءة فيه يوميًا لأختم السلكة كل سبعة أيام، وسمعت من شيخنا سيدي أحمد الريفي أن بعض كبار الأولياء يداوم على طريقة قراءة القرآن مبتدئًا (بالفاتحة) إلى (سورة المائدة)، ثم إلى (سورة يونس)، ثم إلى (سورة الإسراء)، ثم إلى (سورة الشعراء)، ثم إلى (سورة الصافات)، ثم إلى (سورة ق)، ثم إلى آخر السلكة، ومنذ ذلك الحين وأنا أقرأ القرآن من المصحف الشريف بهذا الترتيب[٢].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٢٨.

(٢) انظر: عمر المختار، ص٢٨، ٢٩.

إنَّ المحافظة على تلاوة القرآن والتعبُّد به تدل على قوة الإيمان، وتعمقه في النفس، وبسبب الإيمان العظيم الذي تحلى به عمر المختار انبثق عنه صفات جميلة، كالأمانة والشجاعة، والصدق، ومحاربة الظلم، والقهر، والخنوع، وقد تحلى هذا الإيمان في حرصه على أداء الصلوات في أوقاتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وكان يتعبد المولى ﷻ بتنفيذ أوامره، ويسارع في تنفيذها، وكان كثير التنفُّل في أوقات الفراغ، وكان قد ألزم نفسه بسنة الضحى، وكان محافظًا على الوضوء حتى في غير أوقات الصلاة، ومما يروى عنه أنه قال: «لا أعرف إنني قابلت أحدًا من السادة السنوسية وأنا على غير وضوء منذ شرفني الله بالانتساب إليهم»[١].

لقد كان هذا العبد الصالح يهتم بزاده الروحي اليومي بتلاوة القرآن الكريم، وقيام الليل، واستمر معه هذا الحال حتى استشهاده.

فهذا المجاهد محمود الجهمي الذي حارب تحت قيادة عمر المختار وصاحبه كثيرًا يذكر في مذكراته أنه كان يأكل معه وينام معه في مكان واحد ويقول: «لم أشهد قط أنه نام لغاية الصباح، فكان ينام ساعتين أو ثلاثًا على أكثر تقدير، ويبقى صاحيًا يتلو القرآن الكريم، وغالبًا ما يتناول الإبريق ويسبغ الوضوء بعد منتصف الليل، ويعود إلى تلاوة القرآن، لقد كان على خلق عظيم يتميز بميزات التقوى والورع، ويتحلى بصفات المجاهدين الأبرار...»[٢].

وأما الأستاذ محمد الطيب الأشهب، فقد قال: «وقد عرفته معرفة طيبة، وقد مكنتني هذه المصاحبة من الاحتكاك به مباشرة، فكنت أنام بخيمته وإلى جانبه، وأهم ما كنت أمقته منه -رحمه الله- وأنا وقتذاك حديث السن هو أنه لا يتركنا أن ننام؛ إذ يقضي كل ليلة يتلو القرآن ويقوم مبكرًا، فيأمرنا بالوضوء بالرغم عما نلاقيه من شدة البرد ومتاعب السفر...»[٣].

---

(١) انظر: مذكرات مجاهد، محمود الجهمي، محمد مناع.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: برقة العربية، ص٤٣٩.

وكأني أراه من خلف السنين وهو قائم يصلي لله ربِّ العالمين في وديان وجبال وكهوف الجبل الأخضر، وقد التف بجرده الأبيض في ظلمة الليل البهيم وهو يتلو كتاب الله بصوت حزين، وتنحدر الدموع على خدوده من خشية العزيز الرحيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

ولقد وصى رسول الله ﷺ أبا ذر ﷺ بذلك، فقال: «عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأرض، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ» وقد حذَّر الرسول الكريم ﷺ من هجر القرآن، فقال: «إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ»[1].

وقال الشاعر:

قُمْ فِي الدُّجى واتلُ الكِتابَ وَلا تَنَم ... إِلّا كَنَومَةِ حائِرٍ وَلِهانِ

فَلَرُبَّما تأتي المَنِيَّةُ بَغتَةً ... فَتُساقُ مِن فُرُشٍ إِلى الأَكفانِ

يا حَبَّذا عَينانِ في غَسَقِ الدُّجى ... مِن خَشيَةِ الرَّحمَنِ باكِيَتانِ

اعرِض عَنِ الدُّنيا الدَنيَّةِ زاهِدًا ... فالزُّهدُ عِندَ أُولي النُّهى زُهدانِ

زُهدٌ عَنِ الدُّنيا وَزُهدٌ في الثَّنا ... طوبى لِمَن أَمسى لَهُ الزُّهدانِ[2]

إنَّ من أسباب الثبات التي تميز به عمر المختار حتى اللحظات الأخيرة من حياته إدمانه على تلاوة القرآن الكريم والتعبُّد به وتنفيذ أحكامه؛ لأن القرآن الكريم مصدر تثبيت وهداية، وذلك لما فيه من قصص الأنبياء مع أقوامهم، ولما فيه من ذكر مآل الصالحين، ومصير الكافرين والجاحدين وأوليائه بأساليب متعددة[3].

لقد كان عمر المختار يتلو القرآن الكريم بتدبر وإيمان عظيم؛ فرزقه الله الثبات وهداه طريق الرشاد، ولقد صاحبه حاله في التلاوة حتى النفس الأخير، وهو يساق إلى حبل

---

(١) رواه البخاري.

(٢) انظر: نونية القحطاني، ص٤٢.

(٣) انظر: الثبات، د. محمد بن حسن عقيل، ص١٢.

المشـنقة، وهـو يتلـو قولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيَّتُهَـا الـنَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّـكِ رَاضِـيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨][١].

رابعًا: شجاعته وكرمه

إنَّ هـذه الصـفة الجميلـة تظهـر في سـيرة عمـر المختـار منـذ شبابه البـاكر؛ ففـي عـام (١٣١١هـ -١٨٩٤م) تقرر سفر عمر المختار على رأس وفـد إلى السـودان يضـم كـل مـن السيد خالـد بـن موسـى، والسـيد محمـد المسـالوسي، وقرجيلـه المجبري، وخليفـة الـدبار الزوي أحد أعضاء زاوية واو بفزان (وهو الـذي روى القصـة)، وفي الكفـرة وجـد الوفـد قافلة من التجار من قبيلتي الزاوية والمجابرة، وتجار آخرين من طرابلس وبنغازي تتأهـب للسـفر إلى السـودان، فانضـم الوفـد إلى هـؤلاء التجـار الـذين تعـودوا السـير في الطـرق الصـحراوية، ولهـم خـبرة جيـدة بـدروبها، وعنـدما وصـل المسـافرون إلى قلـب الصـحراء بالقرب من السودان قال بعض التجار الذين تعودوا المرور مـن هـذا الطريـق: إننـا سـنمر بعد وقت قصير بطريق وعر لا مسلك لنا غيره، ومن العادة -إلا في القليل النادر- يوجـد فيه أسد ينتظر فريسته من القوافل التي تمر من هناك، وتعودت القوافل أن تـترك لـه بعـيرًا كـما يـترك الإنسـان قطعـة اللحـم إلى الكـلاب أو القطـط، وتمـر القوافـل بسـلام، واقـترح المتحدث أن يشترك الجميع في ثمن بعير هزيـل، ويتركونـه للأسـد عنـد خروجـه، فـرفض عمر المختار بشدة قائلًا: «إنَّ الإتاوات التي كان يفرضها القوي منا عـلى الضـعيف بـدون حق أبطلت، فكيف يصح لنا أن نعيد إعطاءها للحيـوان، إنهـا علامـة الهـوان والمذلـة، إننـا سندفع الأسد بسلاحنا إذا ما اعترض طريقنا»، وقد حاول بعض المسـافرين أن يثنيـه عـن عزمه، فردَّ عليهم قائلًا: «إنني أخجل عندما أعود وأقـول: إننـي تركـت بعـيرًا إلى حيـوان اعترض طريقي، وأنا على استعداد لحماية ما معي، وكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، إنها عادة سيئة يجب أن نبطلها».

وما كادت القافلة تدنو من الممر الضيق حتى خرج الأسد من مكانه الذي اتخذه عـلى إحدى شرفات الممر، فقال أحد التجار وقد خاف من هول المنظر وارتعشت فرائصـه مـن

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٥٩.

ذلك: «أنا مستعد أتنازل عن بعير من بعائري، ولا تحاولوا مشاكسة الأسد»، فانبرى عمر المختار ببندقيته وكانت من النوع اليوناني، ورمى الأسد بالرصاصة الأولى فأصابته، ولكن في غير مقتل، واندفع الأسد يتهادى نحو القافلة، فرماه بأخرى فصرعته، وأصر عمر المختار على أن يسلخ جلده ليراه أصحاب القوافل، فكان له ما أرد(١).

إنَّ هذه الحادثة تدلنا على شجاعة عمر المختار، وقد تناولتها المجالس يومذاك بمنتهى الإعجاب، وقد سأل الأستاذ محمد الطيب الأشهب عمر المختار نفسه عن هذه الحادثة في معسكر المغاربة بخيمة السيد محمد الفائدي عن هذه الواقعة، فأجاب بقوله: «تريدني يا ولدي أن أفتخر بقتل صيد؟! قال لي: ما قاله قديمًا أحد الأعراب لمنافسه وقد قتل أسدًا: «أتفتخر عليَّ بأنك قتلت حشرة»، وامتنع عمر المختار بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

إنَّ جواب عمر المختار بهذه الآية الكريمة يدل على تأثره العميق بالقرآن الكريم؛ لأنه تعلَّم أن أهل الإيمان والتوحيد في نظرتهم العميقة لحقيقة الوجود وتطلعهم إلى الآخرة ينسبون الفضل إلى العزيز الوهاب سبحانه وتعالى، ويتخلصون من حظوظ نفوسهم، فهو الذي مرَّ كثيرًا على دعاء نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١١].

وهو الذي تعلَّم من سيرة ذي القرنين هذا المعنى الرفيع، والذي لا بدَّ من وجوده في الشخصية القيادية الربانية في قوله تعالى: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]، فعندما بنى السد ورفع الظلم وأعان المستضعفين نسب الفضل إلى ربه سبحانه وتعالى

إنَّ عمر المختار كان صاحب قلب موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر وحلاوة الغلبة بعد ما تخلص من الأسد الأسطورة، وأزاح الظلم وقهر التعدي، بل نسب الفضل إلى خالقه، ولذلك أجاب سائله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٣٩، ٤٠.

إنَّ صفة الشجاعة ظهرت في شخصية عمر المختار المتميزة في جهاده في (تشاد) ضد فرنسا، وفي (ليبيا) ضد إيطاليا، ويحفظ لنا التاريخ هذه الرسالة التي أرسلها عمر المختار ردًّا على رسالة من الشارف الغرياني الذي أكرهته إيطاليا ليتوسط لها في الصلح مع عمر المختار وإيقاف الحرب.

قال بعد البسملة والصلاة على رسول الله ﷺ القائل: «إِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»: إلى أخينا سيدي الشارف بن أحمد الغرياني -حفظه الله وهداه، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته ومغفرته ومرضاته، نعلمكم أن إيطاليا إذا أرادت أن تبحث معنا في أي موضوع تعتقد أنه يهمها ويهمنا، فما عليها إلا أن تتصل بصاحب الأمر ومولاه سيدي السيد محمد إدريس ابن السيد محمد المهدي ابن السيد محمد السنوسي -رضي الله عنهم جميعًا، فهو الذي يستطيع قبول البحث معهم أو رفضه، وأنتم لا تجهلون هذا، بل وتعرفون إذا شئتم أكثر من هذا، ومكان سيدي إدريس في مصر معروف عندكم، وأما أنا وبقية الإخوان المجاهدين لا نزيد عن كوننا جند من جنوده لا نعصي له أمرًا، ونرجو من الله ﷻ ألا يقدر علينا مخالفته، فنقع فيما لا نريد الوقوع فيه، حفظنا الله وإياكم من الزلل، نحن لا حاجة عندنا إلا مقاتلة أعداء الله والوطن وأعدائنا، وليس لنا من الأمر شيء إذا ما أمرنا سيدنا وولي نعمتنا -رضي الله عنه ونفعنا به- بوقف القتال نوقفه، وإذا لم يأمرنا بذلك؛ فنحن واقفون عند ما أمرنا به، ولا نخاف طيارات العدو ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس المكسرين (هؤلاء الآخرين هم المجندون من بعض الليبيين)، ولا نخاف حتى من السم الذي وضعوه في الآبار وبخوا به الزروع النابتة في الأرض.. نحن من جنود الله، وجنوده هم الغالبون، ونحن لا نريد لكم ما يدفعكم إليه النصارى وظننا بكم خير، والله يوفقنا ويهدينا وإياكم إلى سبل الرشاد وإلى خدمة المسلمين ورضاء سيدنا ﷺ، وسلام الإسلام على من تبع الإسلام».

١٣ ربيع الثاني ١٣٤٤هـ

نائب المنطقة الجبلية عمر المختار[1]

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٨٧.

ومحل الشاهد من هذه الرسالة قوله: «ولا نخاف طيارات العدو ومدافعه ودباباته وجنوده من الطليان والحبش والسبايس، ولا نخاف حتى من السم الذي وضعوه في الآبار ووضعوه على الزروع النابتة في الأرض.. نحن من جنود الله، وجنوده هم الغالبون».

إنَّ صفة الشجاعة ملازمة لصفة الكرم، كما أن الجبن والبخل لا يفترقان، ولقد حفظ لنا التاريخ عبارة جميلة كان يرددها عمر المختار بين ضيوفه: «إننا لا نبخل بالموجود، ولا نأسف لمفقود».

لقد تضافرت نصوص الكتاب والسُّنة بمدح الكرم والإنفاق وذم البخل والإمساك، قال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧].

لم تكن همة عمر المختار منصرفة إلى جمع المال والثروة والغنى، وإن كان قد ورث عن والده بعض الماشية إلا أنه تركها في رعاية بعض أقاربه في القبيلة وترك أرضه وموطنه منذ أن كان عمره ١٦ عامًا، وكان طيلة فترة إقامته في معهد الجغبوب تتكفل إدارة المعهد بمصروفاته، وبعد أن تزوَّج وكوَّن أسرة أصبح مورد رزقه ما يتحصل عليه من نتاج الحيوانات القليلة، ولم يكن يومًا من الأيام متفرغًا لجمع المال، وإنما عاش للعلم والدعوة والجهاد، وانشغل عن جمع الأموال والثروات وقضى حياته فقيرًا مقتنعًا بما رزقه الله من القناعة والرضا بالكفاف، وكان يبذل ما في وسعه لضيوفه وجنوده، وينفق على أفراد جيشه من ما لا يخشى الفقر، ويقدم إخوانه على نفسه، وأصبح شعاره (إننا لا نبخل بالموجود، ولا نأسف لمفقود)[1].

خامسًا: الدعوة والجهاد قبل الاحتلال الإيطالي

تفوق عمر المختار على أقرانه بصفات عدة، منها: متانة الخلق، ورجاحة العقل، وحب الدعوة، ووصل أمره إلى الزعيم الثاني للحركة السنوسية محمد المهدي السنوسي، فقدمه على غيره واصطحبه معه في رحلته الشهيرة من الجغبوب إلى الكفرة عام ١٨٩٥م،

(١) انظر: عمر المختار، ص٣٢.

وفي عام ١٨٩٧م أصدر محمد المهدي قرارًا بتعيين عمر المختار شيخًا لزاوية القصور بالجبل الأخضر قرب المرج، وقام عمر المختار بأعباء المهمة خير قيام، فعلَّم الناس أمور دينهم، وساهم في فض النزعات بين القبائل، وعمل على جمع كلمتهم، وسعى في مصالحهم، وسار في الناس سيرة حميدة، فظهر في شخصيته أخلاق الدعاة من حلم، وتأنٍ، وصبر، ورفق، وعلم، وزهد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن وقوع الاختيار عليه للقيام بأمور هذه الزاوية كان مقصودًا من قبل قيادة الحركة السنوسية؛ حيث إن هذه الزاوية كانت في أرض قبيلة العبيد التي عرفت بقوة الشكيمة وشدة المراس، فوفقه الله في سياسة هذه القبيلة، ونجح في قيادتها بفضل الله وبما أودع الله فيه من صفات قيادية من حكمة وعلم وحلم وصبر وإخلاص.

إنَّ الفترة التي قضاها في زاوية القصور تدلنا وتشهد لنا على أعماله الجليلة؛ كداعية رباني يدعو إلى الإسلام ونشره بالفكرة والإقناع والإرشاد التوجيه، فهو قمة شامخة في هذا المجال، فهو لم يدخل مجال الدعوة والإرشاد إلا بعد أن تعلَّم من أمور دينه الكثير، فشق طريق الدعوة بزاد علمي، وثقافة متميزة، وتفوق روحي، ورجاحة عقل، وقوة حجة، ورحابة صدر، وسماحة نفس، لقد كان حريصًا على تعلم العلم والعمل به وتعليمه، وعندما زحف الاستعمار الفرنسي على مراكز الحركة السنوسية في تشاد، نظمت الحركة السنوسية نفسها وأعدت للجهاد عدتها، واختارت من القادة مَن هم أولى بهذا العمل الجليل، فكان عمر المختار من ضمنهم، فقارع الاستعمار الفرنسي مع كتائب الحركة السنوسية المجاهدة في (تشاد)، وبذل ما في وسعه حتى لفت الأنظار إلى حزمه وعزمه وفراسته وبُعد نظره وحسن قيادته، فقال عنه محمد المهدي السنوسي: «لو كان لدينا عشرة مثل المختار لاكتفينا»[1].

وبقي عمر المختار في تشاد يعمل على نشر الإسلام ودعوة الناس وتربيتهم إلى جانب جهاده ضد فرنسا، فحمل الكتاب الذي يهدي بيد، والسيف الذي يحمي باليد الأخرى، وظهرت منه شجاعة وبطولة وبسالة نادرة في الدفاع عن ديار المسلمين، وكانت المناطق

---

(١) انظر: مجلة المسلم.

التي يتولى أمرها أمنع من عرين الأسد، ولا يخفى ما في ذلك من إدراك القيادي المسلم لواجبه تجاه دينه وعقيدته وأمته[١].

وعندما أصيبت الإبل التي كانت تحمل الأثقال للمجاهدين بمرض الجرب، وكان عددها لا يقل عن أربعة آلاف بعير، وكانت تلك الإبل هي قوام الحياة بالنسبة للمجاهدين، واهتم السيد المهدي السنوسي بشأن علاجها، ووقع اختياره على عمر المختار ليكون المسئول عن هذه المهمة التي شغلت بال المجاهدين، فأمره بأن يذهب بالإبل إلى موقع (عين كلك) نظرًا لوفرة مائه ولصلاحيته، وكانّ على عمر المختار مهمة أخرى وهي الاحتياط والحرص الشديد واتخاذ التدابير اللازمة للدفاع، واختار عمر المختار من المجاهدين مجموعة خيرة، وذهب لتنفيذ أمر القيادة، وكان توفيق الله له عظيمًا في مهمته العسيرة؛ فنال إعجاب السيد المهدي[٢].

وفي عام ١٩٠٦م رجع عمر المختار بأمر من القيادة السنوسية إلى الجبل الأخضر ليستأنف عمله في زاوية القصور، ولكن ذلك لم يستمر طويلًا، فقد بدأت المعارك الضارية بين الحركة السنوسية والبريطانيين في منطقة البردي ومساعد والسلوم على الحدود الليبية المصرية.

ولقد شهد عام ١٩٠٨م أشد المعارك ضراوة، وانتهت بضم السلوم إلى الأراضي المصرية تحت ضغوط بريطانيا على الدولة العثمانية، وعاد الشيخ عمر المختار إلى زاوية القصور، وبرزت شخصيته بين زملائه مشايخ الزوايا، وبين شيوخ وأعيان القبائل، ولدى الدوائر الحكومية العثمانية، وظهرت مقدرته في مهمته الجديدة بصورة تلفت النظر، وأصبح متميزًا في حزمه في إدارة الزاوية، وفي تعاونه مع زملائه الآخرين، وفي معالجته للمشاكل القبلية، وفي ميدان الإصلاح العام مضربًا للأمثال.

وكانت تربطه صلات شخصية مع عدد كبير من زعماء، وأعيان القبائل في برقة، وكذلك زعماء المدن، وكان زعماء البراعصة يحبون عمر المختار حبًّا نابعًا من قلوبهم في

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٢٧.

(٢) انظر: عمر المختار، ص٣٧.

حين أنهم لم يكونوا من القبائل التابعة لزاويته، وارتبطت علاقاته الأخوية مع شيوخ الزوايا كالسادة السنوسي الأشهب شيخ زاوية مسوس، وعمران السكوري شيخ زاوية المرج، وعبد ربه بوشناف الشيخي، والحسن الغماري شيخ زاوية دريانه[1].

سادسًا: الشيخ عمر المختار في معاركه الأولى ضد إيطاليا

عندما اندلعت الحرب الليبية الإيطالية عام ١٩١١م كان عمر المختار وقتها بواحة (جالو) خفّ مسرعًا إلى زاوية (القصور)، وأمر بتجنيد كل من كان صالحًا للجهاد من قبيلة العبيد التابعة لزاوية (القصور)، فاستجابوا نداءه، وأحضروا لوازمهم، وحضر أكثر من ألف مقاتل، وكان عيد الأضحى من نفس السنة الهجرية على الأبواب، أي: لم يبق عليه إلا ثلاثة أيام فقط، ولم ينتظر السيد عمر المختار عند أهله حتى يشاركهم فرحة العيد، فتحرك بجنوده وقضوا يوم العيد في الطريق، وكانت الذبائح التي أكل المجاهدين من لحومها يوم العيد من السيد عمر المختار شخصيًّا، ووصل المجاهدون وعلى رأسهم عمر المختار وبرفقته أحمد العيساوي إلى موقع بنينه؛ حيث معسكر المجاهدين الذي فرح بقدوم نجدة عمر المختار ورفقائه، ثم شرعوا يهاجمون العدو ليلًا ونهارًا، وكانت غنائمهم من العدو تفوق الحصر[2]، وقد بيَّنت دور الزوايا في جهادها ضد إيطاليا في الجزء الثاني عن الحركة السنوسية، والذي سمَّيته «سيرة الزعيمين محمد المهدي السنوسي، وأحمد الشريف».

ويذكر الشيخ محمد الأخضر العيساوي بأنه كان قريبًا من عمر المختار في معركة السلاوي عام ١٩١١م، فوصف لنا بعض أحداث تلك المعركة، فقال: «... وقد فاجأنا العدو فقابله من المجاهدين الخيالة، بينما كان العدو يضربنا بمدافعه الرشاشة، واضطررنا للنزول في مكان منخفض مزروعًا بالشعير، وكانت السنابل تتطاير بفعل الرصاص المنهمر، فكأنها تحصد بالمناجل، وبينما نحن كذلك؛ إذ رأينا مكانًا منخفضًا أكثر من المكان الذي نحن فيه، وأردنا أن يأوي إليه السيد عمر المختار بسبب خوفنا عليه، فرفض بشدة

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٠، ٤١.
(٢) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٦.

حتى جاءه أحد أتباعه يدعى السيد الأمين ودفعه بقوة إلى المكان الذي اخترناه لإيوائه، وحاول الخروج منه فمنعناه بصورة جماعية...»[١].

كما أشار الشيخ محمد الأخضر إلى إعجاب الضباط الأتراك به وبشجاعته وبالآراء السديدة التي تصدر عنه، فكأنما هي تصدر من قائد ممتاز تخرَّج من كلية عسكرية، وكان قدومه إلى معسكرات المجاهدين مشجعًا وباعثًا للروح المعنوية في قوة خارقة، وقد تحدَّثت في سيرة أحمد الشريف في الجزء الثاني عن الحركة السنوسية عن حركة الجهاد في أيامها الأولى ضد إيطاليا، وكان عمر المختار من المقربين للشيخ أحمد الشريف السنوسي، وبعد هجرته لازم عمر المختار الأمير محمد إدريس وقام بواجباته خير قيام، وبعد هجرة الأمير إلى مصر تولى أمر القيادة العسكرية بالجبل الأخضر، وأخذ في تهيئة النفوس لمجابهة العدو، وبدأ جولاته في أنحاء المنطقة للاتصال بالأهالي وزعمائهم، بل وبالأفراد كخطوة أولى للعمل الجديد الشاق في نفس الوقت، وقام بفتح باب التطوع للجهاد، فأقبل الليبيين من أبناء قبائل الجبل بوجوه مستبشرة وقلوب مطمئنة وتلهف على مجابهة العدو الغادر، وكانت ترافقه لجنة مكونة من أعيان وشيوخ قبائل المنطقة (البراغيث، والحرابي، والمرابطين) لمساعدته في عمله العظيم، وكان من بينهم: بوشديق بومازق حدوث، والصيفاط بوفروة، ومحمد بوالقاسم جلغاف، وحمد الصغير حدوث، ودلاف بوعبد الله، ومحمد العلواني، وسويكر عبد الجليل، وموسى بوغيضان، والغرياني عبد ربه بوشناف، وعبد الله الخرساني، وعوض العبيدي، ورجب بوسيحة، ورواق بودرمان، وكريم بوراقي، وقطيط الحاسي، وغير هؤلاء من علية القوم، فزار أغلب مناطق الجبل والبطنان، وكان سمو الأمير قد وصل إلى مصر (يناير ١٩٢٣م)، وما كاد السيد عمر ينتهي من جولته هذه ويطمئن للنتائج حتى قرَّر الالتحاق بسمو الأمير في مصر؛ ليعرض عليه نتيجة عمله، ويتلقى منه التوجيهات اللازمة[٢].

سابعًا: سفره إلى مصر

سافر في شهر مارس سنة ١٩٢٣م إلى مصر بصحبة علي باشا العبيدي، وترك رفقاءه

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٦.

(٢) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٥٦.

عند بئر الغبي حتى يعود إليهم، واستطاع اجتياز الحدود المصرية، وتمكن من مقابلة السيد إدريس بمصر الجديدة، وكان عمر المختار عظيم الولاء للسنوسية وزعمائها وشيوخها، وظهر ذلك الولاء في إقامته بمصر عندما حاول جماعة من قبيلة المنفة وهي قبيلة السيد عمر المختار، وكانوا قد أقاموا بمصر، أن يقابلوا السيد عمر للترحيب به، فاستفسر المختار قبل أن يأذن لهم بذلك عما إذا كانوا قد سعوا لمقابلة الأمير عند حضوره إلى مصر، فلما أجاب هؤلاء بالنفي معتذرين بأن أسبابًا عائلية قهرية منعتهم من تأدية هذا الواجب -رفض المختار مقابلتهم قائلًا: «وكيف تظهرون لي العناية وتحضرون لمقابلتي، وأنتم الذين تركتم شيخي الذي هو ولي نعمتي وسبب خيري، أما وقد فعلتم ذلك؛ فإني لا أسمح لكم بمقابلتي، ولا علاقة من الآن بيني وبينكم»[١].

فما أن بلغ السيد إدريس ما فعله عمر المختار مع مَنْ جاء إليه من أبناء قبيلته حتى أصدر أمره بمقابلتهم، فامتثل المختار لأمره[٢].

حاولت إيطاليا بواسطة عملائها بمصر الاتصال بالسيد عمر المختار، وعرضت عليه بأنها سوف تقدِّم له مساعدة إذا ما تعهد باتخاذ سكنه في مدينة بنغازي أو المرج، وملازمة بيته تحت رعاية وعطف إيطاليا، وأن حكومة روما مستعدة بأن تجعل من عمر المختار الشخصية الأولى في ليبيا كلها، وتتلاشى أمامه جميع الشخصيات الكبيرة التي تتمتع بمكانتها عند إيطاليا في طرابلس وبنغازي، وإذا ما أراد البقاء في مصر فما عليه إلا أن يتعهد بأن يكون لاجئًا، ويقطع علاقته بإدريس السنوسي، وفي هذه الحالة تتعهد حكومة روما بأن توفِّر له راتبًا ضخمًا يمكنه من حياة رغدة، وهي على استعداد أن يكون الاتفاق بصورة سرية، وتوفير الضمانات لعمر المختار، ويتم كل شيء بدون ضجيج تطمينًا لعمر المختار، وقد طلبت منه نصح الأهالي بالإقلاع عن فكرة القيام في وجه إيطاليا[٣]، وقد أكد عمر المختار هذا الاتصال، وهو في مصر لما سُئِل عن ذلك، وقال: «ثقوا أنني لم أكن لقمة طائبة يسهل بلعها على مَن يريد، ومهما حاول أحد أن يغيِّر من عقيدتي ورأيي

(١) المصدر السابق، ص٨.
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٧١.
(٣) انظر: عمر المختار، ص٥٦.

واتجاهي، فإن الله سيخيبه، ومن (طياح سعد) إيطاليا ورسلها هو جهلها بالحقيقة، وأنا لم أكن من الجاهلين والموتورين، فادعي أنني أقدر أعمل شيئًا في برقة، ولست من المغرورين الذين يركبون رءوسهم ويدعون أنهم يستطيعون أن ينصحوا الأهالي بالاستسلام.. إنني أعيذ نفسي من أن أكون في يوم من الأيام مطية للعدو وأذنابه، فأدعو الأهالي بعدم الحرب ضد الطليان، وإذا لا سمح الله قدَّر عليَّ بأن أكون موتورًا، فإن أهل برقة لا يطيعون لي أمرًا يتعلق بإلقاء السلاح.. إنني أعرف أن قيمتي في بلادي إذا ما كانت لي قيمة أنا وأمثالي؛ فإنها مستمدة من السنوسية»[1].

لقد استمرت عروض الإيطاليين على عمر المختار حتى بعد رجوعه للبلاد، وحاولوا استمالته بالمال الطائل، والمناصب الرفيعة، والجاه العريض في ظل حياة رغيدة ناعمة، ولكنهم لم يفلحوا، لقد كان عمر المختار رجل عقيدة، وصاحب دعوة ومؤمنًا بفكرة استمدت أصولها وتصوراتها من كتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﷺ، ويفهم جيدًا معنى قول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وعندما خرج السيد عمر المختار من مصر قاصدًا برقة لمواصلة الجهاد اجتمع به مشايخ قبيلته الموجودون بمصر من المتقدمين في السن، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه بدعوى أنه قد بلغ من الكبر عتيًا، وأن الراحة والهدوء ألزم له من أي شيء آخر، وأن باستطاعة السنوسية أن تجد قائدًا غيره لتزعم حركة الجهاد في برقة، فغضب عمر المختار غضبًا شديدًا، وكان جوابه قاطعًا فاصلًا فقال لمحدثيه: «إنَّ كل مَن يقول لي هذا الكلام لا يريد خيرًا لي؛ لأن ما أسير فيه إنما هو طريق خير، ولا ينبغي لأحد أن ينهاني عن سلوكها، وكل مَن يحاول ذلك؛ فهو عدو لي»[2].

لقد كان عمر المختار يعتقد اعتقادًا راسخًا أن ما كان يقوم به من الجهاد إنما هو فرض

(١) انظر: عمر المختار، ص٥٨.

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٧١.

يؤديه وواجب ديني لا مناص منه ولا محيد عنه، ولذلك أخلص في عمله وسكناته وأحواله وأقواله لقضية الجهاد في ليبيا، وكان يكثر من الدعاء لله تعالى بأن يجعل موته في سبيل هذه القضية المباركة، فكان يقول: «اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة»[١]، وأصر على البقاء في أرض الوطن الحبيب وقال: «لا أغادر هذا الوطن حتى ألاقي وجه ربي، والموت أقرب إليَّ من كلِّ شيء؛ فإني أترقبه بالدقيقة»[٢].

وعندما عرض عليه أن يترك ساحة الجهاد، ويسافر إلى الحج قال: «لن أذهب ولن أبرح هذه البقعة حتى يأتي رسل ربي، وإن ثواب الحج لا يفوق ثواب دفاعنا عن الوطن والدين والعقيدة»[٣].

وقال: «كلُّ مسلم الجهاد واجب عليه وليس منة، وليس لغرض أشخاص، وإنما هو لله وحده»[٤].

إنَّ هذه الكلمات التي كتبت بماء الذهب على صفحات تاريخنا المجيد نابعة من فهم عمر المختار؛ لقوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التوبة: ١٩-٢٢].

ومن فهمه لأحاديث رسول الله ﷺ «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[٥]، ولقوله ﷺ «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٦].

---

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده للحساوي، ص٣٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص٣٧.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص٣٧.
(٥) رواه مسلم.
(٦) انظر: صحيح سنن أبي داود للألباني.

إنَّ هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة كانت المنهج العقدي والفكري الذي تربت عليها كتائب المجاهدين وقادتها الكرام الذين تربوا في أحضان الحركة السنوسية.

تمَّ الاتفاق بين الأمير إدريس وعمر المختار على تفاصيل الخطة التي يجب أن يتبعها المجاهدون في جهادهم ضد العدو الغاشم المعتدي على أساس تشكيل المعسكرات، واختيار القيادة الصالحة لهذه الأدوار، وأن تظل القيادة العليا من نصيب عمر المختار نفسه، وزوده الأمير بكتاب إلى السيد الرضي بهذا المعنى، وتمَّ الاتفاق على بقاء الأمير في مصر؛ ليقود العمل السياسي، ويهتم بأمر المهاجرين ويضغط على الحكومة المصرية والإنكليزية بالسماح للمجاهدين بالالتجاء إلى مصر، ويشرف على إمداد المجاهدين بكلِّ المساعدات الممكنة من مصر، ويرسل الإرشادات والتعليمات اللازمة إلى عمر المختار في الجبل، واتفق على أن يكون الحاج التواتي البرعصي حلقة الوصل بين الأمير وقائد الجهاد، وبعد ذلك الاتفاق غادر عمر المختار القاهرة، وعند وصوله إلى السلوم وجد بعض رفقائه في انتظاره، فأخذ الجميع حاجتهم من المؤن الكافية لرحلتهم إلى الجبل الأخضر وغادروا السلوم إلى برقة[1].

وقد حدث في أثناء وجود عمر المختار أن اشتبك المجاهدون مع الطليان في معركتين كبيرتين في بير بلال والبريقة في ذي القعدة (١٣٤١هـ- ١٩٢٣م)، فانتصر المجاهدون على الطليان في معركة بير بلال بقيادة المجاهد قجة عبد الله السوداني، واستشهد كل من المهدي الحرنة، والشيخ نصر الأعمى وغيرهم، وقد ساهم في هذه المعركة صالح الأطيوش، والفضيل المهشهش، وكانت نفقات المجاهدين في هذه المعركة على حساب الفضيل المهشهش، ووقعة معركة البريقة بعد بير بلال بأربعة أيام، واستشهد فيها من أبطال الجهاد إبراهيم الفيل[2].

ومع هذه الانتصارات إلا أن الطليان استطاعوا احتلال أماكن للمجاهدين في برقة، وزحفوا على معسكر العواقير بموقع البدين، وبعد معركة شديدة كبدت الطرفين خسائر

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٧٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٧٤،٢٧٣.

فادحة انسحب المعسكر إلى أجدابية، واستمر الزحف الإيطالي يلاحق المجاهدين حتى اشتبك مع طلائع معسكر المغاربة في الزويتينة؛ ولم يطل الدفاع عنها حتى احتلها الطليان، وواصلوا زحفهم إلى أجدابية؛ حيث احتلوها في (أبريل ١٩٢٣م)[١].

ثامنًا: معركة بئر الغبي

كانت عيون إيطاليا تترصد حركة عمر المختار في عودته إلى برقة، ولكنها فشلت في اللقاء به قبل أن يصل إلى رفاقه، وما كاد يصل إلى بئر الغبي حتى فوجئ بعدد من المصفحات الإيطالية، وإليك أحداث المعركة كما رواها عمر المختار بنفسه: «كنا لا نتجاوز الخمسين شخصًا من المشايخ والعساكر، وبينما تجمع هؤلاء حولنا لسؤالنا عن صحة سمو الأمير، وكنا صائمين رمضان، وإذا بسبع سيارات إيطالية قادمة صوبنا، فشعرنا بالقلق؛ لأن مجيئها كان محل استغرابنا ومفاجأة لم نتوقعها، وكنا لم نسمع عن هجوم الطليان على المعسكرات السنوسية، واحتلالهم أجدابية، فأخذنا نستعد في هدوء والسيارات تدنو منا في سير بطيء، فأراد علي باشا العبيدي أن يطلق الرصاص من بندقيته، ولكنني منعته قائلًا: «لا بدَّ أن نتحقق قبلًا من الغرض، ونعرف شيئًا عن مجيء هذه السيارات كي لا نكون البادئين بمثل هذه الحوادث»، وبينما نحن في أخذ ورد، وإذا بالسيارات تفترق في خطة منظمة المراد منها تطويقنا، وشاهدنا المدافع الرشاشة مصوبة نحونا، فلم يبق هنا أي شك فيما يراد بنا، فأمطرناهم وابلًا من رصاص بنادقنا، وإذا بالسيارات قد ولت الأدبار إلى منتجع قريب منا، وعادت بسرعة تحمل صوفًا، ولما دنت منا توزعت توزيعًا محكمًا، وأخذ الجنود ينزلون ويضعون الأصواف (الخام) أمامهم؛ ليتحصنوا بها من رصاصنا[٢]، وبادرنا بطلق الأعيرة فأخذ علي باشا يولع سيجارة، وقلت له: رمضان!! يا علي باشا منبهًا إياه للصوم، فأجابني قائلًا: «مو يوم صيام المنشر زام»[٣].

وفي أسرع مدة انجلت المعركة عن خسارة الطليان، وأخذت النار تلتهم السيارات

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٦٣.

(٢) كان الصوف الخام الكثيف يستعمل ضد الرصاص.

(٣) هذا المثل باللهجة البدوية، ومعناه لم يكن اليوم من أيام الصيام؛ حيث إن صوت البنادق آخذ يدوي، وكلمة المنشر هي اسم لنوع من البنادق، وكلمة زام دوي من الأدوية.


صفحة مفقودة

الجهاز الحكومي في هذه المنطقة الواسعة بتشكيل المحاكم الشرعية والصلحية وإدارة المالية (المحاسبة، والأرزاق، وجباية الزكاة الشرعية، والخمس من الغنائم)، واستمر التعاون بين هذه المعسكرات الثلاثة وفروعها في السراء والضراء، وأخذت تقوم بحركات عظيمة ضد العدو وشن الغرة عليه في معاقله، كما كانت تتصدى لزحفه عليها، فتهجم حينًا، وتنسحب حينًا آخر حسب ظروف الحرب[١].

أصبح تفكير إيطاليا محصورًا في برقة التي لم يتمكن الطليان منذ زحفهم على أجدابية سنة ١٩٢٣م من احتلال مواقع تذكر عدا مدينة أجدابية، ولذلك اهتمت إيطاليا ببرقة، وانحصرت مجهوداتها في الفترة الواقعة بين سنة (١٩٢٣م) وبين (١٩٢٧م) على معسكرات عمر المختار الذي لم يخرج يومًا من معركة إلا ليدخل في معركة أخرى.

وفي عام ١٩٢٧م وقع الوكيل العام السيد رضا المهدي السنوسي في الأسر بطريق الخديعة والخيانة والغدر، وسقطت مناطق برقة الحمراء والبيضاء تدريجيًا.

كانت قيادة الجيش الإيطالي في برقة قد بدلت وتولى أمرها لتنفيذ الخطة الجديدة التي تستهدف ضرب الحصار على حركة الجهاد في الجبل الأخضر (ميزتي)، كما استبدل والي بنغازي الإيطالي (مومبيلي) بخلفه الجنرال (تيروتس)، وهو من زعماء الحزب الفاشيستي، وزود الجنرال ميزتي بعدد كبير من الجنرالات وكبار الضباط وأركان الحرب لمساعدته، وفي نفس السنة تقدَّمت القوات الإيطالية من طرابلس بقيادة الجنرال غراسياني، فاحتلت واحة الجفرة والقسم الأكبر من فزان، واشتبكت قبائل المغاربة بزعامة صالح الأطيوش وقبائل أولاد سليمان بزعامة عبد الجليل سيف النصر، ودور حمد بك سيف النصر، وبعض اللاجئين إلى تلك الجهات من قبائل العواقير بزعامتي عبد السلام باشا الكزة، والشيخ سليمان رقرق، ودخلت هذه القبائل في معارك بجهات الخشة، وكان الغلبة فيها للجيش الإيطالي الزاحف، فالتجأ المجاهدون إلى منطقة الهاروج من الصحراء، ومن ثم اشتركوا مع العدو في معارك عنيفة، منها: معركة الهاروج، ومعركة جبل السوداء، ومعركة قارة عافية، وكان مِن بين مَنْ حضروا هذه المعركة الأخيرة السيد محمود

(١) انظر: عمر المختار، ص٧٠.

بوقويطين أمير اللواء وقائد عام قوة دفاع برقة في زمن المملكة الليبية المتحدة، والسيد السنوسي الأشهب[١].

كانت القيادة الإيطالية حريصة على الاستيلاء على فزان، فخرجت في أواخر يناير ١٩٢٨م قوتان: أحدهما من غدامس والأخرى من الجبل الأخضر، وكان الجيش بقيادة غراسياني، والتحم المجاهدون مع ذلك الجيش في معركة دامية استمرت خمسة أيام بتمامها، انهزم فيها الطليان شر هزيمة، فتقهقروا تاركين ما لديهم من مؤن وذخائر، ثم ما لبث أن خرجت قوة أخرى قصدت فزان مباشرة، فعلم المجاهدون بأمرها بعد خروجها بثلاثة أيام، وانسحبوا إلى الداخل، حتى إذا وصل هذا الجيش الجديد إلى مكان يقع بين جبلين يعرفان بالجبال السود انقض المجاهدون على الطليان وأرغموهم على التقهقر، فعمل قواد الحملة إلى الفرار بسياراتهم تاركين وراءهم الجيش، الذي وقع أكثره في قبضة المجاهدين، فاستأصلوهم عن آخرهم، وعندئذٍ لم يجد الطليان مناصًا من أن يجددوا محاولتهم، فخرجت هذه المرة قوات عظيمة من جهات متعددة غير أن الطليان ما لبثوا أن انهزموا في هذه المعارك، وتركوا وراءهم غنائم وأسلابًا كثيرة[٢]، وجدَّد الطليان المسعى وخرجوا من الجفرة في ٣٠ فبراير ١٩٢٨م بجيش كبير وزحفوا على زلة واحتلتها في ٢٢ فبراير، وواصلت القوات الإيطالية سيرها واحتلت آبار تقرفت في ٢٥ فبراير، واستمرت العمليات وانتهت باحتلال مراده، وأصبحت زلة وجالو وأوجلة ومرادة تحت سيطرتهم، ومما ساعد الطليان على احتلالهم لتلك الواحات سقوط الجغبوب قبل ذلك في أيديهم، وسياستهم الرامية لتفتيت الصف بواسطة بعض عملائهم، وكان الطليان يبذلون الأموال والوعود لزعماء القبائل، لوقف القتال، وقد نجحوا في ذلك نجاحًا كبيرًا.

كان احتلال الجغبوب، وجالو، وأوجلو، وفزان وغيرها من الواحات قد جعل عمر المختار في عزلة تامة في الجبل الأخضر، ومع هذا ظل عمر المختار يشنُّ الغارات على درنة وما حولها حتى أرغم الطليان على الخروج بجيوشهم لمقابلته، فاشتبك معهم في معركة شديدة استمرت يومين كان النصر فيها حليفه وفرَّ الطليان تاركين عددًا من السيارات

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٧٣.
(٢) انظر: حياة عمر المختار، محمود شلبي، ص١١٤، ١١٥.

والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة والجمال ودواب النقل[1].

وكانت القبائل تتعاون مع قائد حركة الجهاد تمده بالرجال والمؤن والمعلومات، وعلى سبيل المثال كان حامد عبد القادر المبروك من شيوخ قبيلة المسامير يمد المختار بالمعلومات المهمة دون تأخر، ويشارك في عمليات الجهاد مع أبناء قبيلته بدون علم الطليان، ويرجع من كتبت له الحياة إلى موطنه، ويستشهد من يستشهد، وكان زعماء القبائل التابعة للحركة السنوسية يجمعون الأعشار والزكاة، ويمدون بها حركة الجهاد بالرغم من وجود الكثير منهم تحت السلطات الإيطالية، وخصوصًا مَن كان في المدن كبنغازي، والمرج، ودرنة، وطبرق وغيرها، وكانت وسائل مد المجاهدين بأموال الزكاة والأعشار تتم في غاية السرية، وعجزت المخابرات الإيطالية عن اكتشاف اللجان الخاصة بالدعم المالي للمجاهدين، ومن وقع في أيدي السلطات الإيطالية كانت عقوبته الإعدام، وكانت الغنائم تمثل مصدرًا مهمًا لتمويل حركة الجهاد في فترة عمر المختار، ومعظم الغنائم تمَّ الحصول عليها في المعارك التي تمكن فيها المجاهدون من هزيمة الإيطاليين مثل معركة الرحيبة في مارس ١٩٢٧م[2]، وقد وصف حافظ إبراهيم هذا المصدر في أبياته الشعرية فقال:

حـاتِمَ الطّليـانِ قَـد قَلّـدتَنا ... مِنَّـةً نَـذكُرُها عامًـا فَعامـا

أنـتَ أَهـدَيتَ إِلَينـا عُـدَّةً ... وَلِباسًـا وَشَرابًـا وَطَعامـا

وَسِـلاحًا كـانَ في أَيـديكُمُ ... ذا كَـلالٍ فَغَـدا يَفـري العِظامـا

أَكثِـروا النُّزهَـةَ في أَحيائِنـا ... وَزُورانـا إِنَّهـا تَشـفي السَّـقاما

لَسـتُ أَدري بِـتَّ تَرعـى أُمَّـةً ... مِـن بَنـي التِّليـانِ أَم تَرعـى سَـواما[3]

وقال الأستاذ أحمد كاشف ذو الفقار:

يـا آل رومـة تطلبـون أمانيًـا ... ختالـة أم تطلبـون منونـا

(١) المصدر السابق نفسه، ص١١٤.

(٢) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، عقيل البربار، ص(٨٢، ٨٣).

(٣) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٩١.

جئتم تجرون الحديد ورحتمُ ... بحديدكم في اليمِّ مغلولينا
ورقصتم فيه سكارى فارقصوا ... في الليلة السوداء مذبوحينا
لئنِ استفزكمُ صليلُ سيوفكم ... فلقد تبدل زفرة وأنينا

إلى أن قال:

هاتوا الذئاب إلى الليوث فخمسة ... منهم أبادوا منكمُ خمسينا
واستجمِعوا حيتانكم ونسوركم ... فالصائدون هناك مرتقبونا
واستكثروا الزَّاد الشهيَّ فإنكم ... وسلاحَكم والزَّادَ مأخوذونا
لم يبق منهم معسر أو أعزل ... بعد الذي غنموه منتصرينا
واستكملوا المدد الكبير بفتيةٍ ... سيقوا إلى الهيجاء هيّابينا
أحسبتمُ بطحاء برقة حانةً ... لكمُ وغزوَ القيروان مجونا[1]

وكانت كل عائلة قد أخذت على عاتقها تزويد مجاهديها بما يلزم من شئون وملابس، ترسله شهريًّا إلى الدور (المعسكر). وكان الأمير إدريس يتحين الفرص لتزويد المجاهدين، فقد ذكر الأشهب بأن قافلة وصلت للمجاهدين قادمة من مصر، وكان فيها سليمان العميري (من قبيلة أولاد علي) وبومنيقر المنفي (من رفاق عمر المختار) يحملان رسائل من سمو الأمير، وكانت القافلة محملة بالأرز والدقيق والسكر والشاي وبعض الملابس، وكان الطيب الأشهب موجودًا في معسكر المجاهدين وقت وصول القافلة[2].

وقد ذكر صاحب كتاب «حياة عمر المختار» بأن قافلة استطاعت أن تخرج من السلوم محملة بمختلف العتاد والمؤن قاصدة معسكر المجاهدين في الجبل الأخضر، فعلم الطليان بذلك وأرسلوا سياراتهم المسلحة لتعقبها، ولكن المجاهدين صمدوا لهم، وأطلقوا رصاص بنادقهم على العجلات، فتعطلت السيارات، وعندئذٍ انقض المجاهدون على القوة الإيطالية فأبادوها عن آخرها، وكان ذلك في عام ١٩٢٨م[3].

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٩٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٧٩.
(٣) انظر: حياة عمر المختار، لشلبي، ص١١٧، ١١٨.

وكان المجاهدون يستفيدون من تلك المصادر، ويقومون بشراء حاجيات المجاهدين من الأسواق في المدن والقرى، ويشترون ما يلزمهم من المؤن والأسلحة، ويجمعون المعلومات عن تحركات العدو العسكرية.. كلُّ هذه الأعمال يقوم بها أتباع عمر المختار، وبمساعدة سكان المدن والقرى الذين يخفون المجاهدين في بيوتهم ومخيماتهم، وكان المتطوعون يتدفقون على معسكرات الجهاد، وكانوا يعتمدون على أنفسهم في توفير السلاح ووسيلة الركوب والتموين، وكان نظام الأدوار (المعسكرات) يتميز بالآتي:

١- يلتزم كل دور بتوفير التموين اللازم لأفراده، فهم بالإضافة إلى اشتراكهم في عمل واحد هم أبناء عشيرة واحدة مترابطة، ويوجد بالدور أشخاص مكلفون بجباية الزكاة وجمع الأعشار، وهؤلاء يقومون بعملهم بناءً على تكليف كتابي من عمر المختار، وهم بدورهم يجرون اتصالات (كوشان) بقيمة المبالغ والأشياء التي استلموها.

وقد عين لكل دور رئيس إدارة يشرف على تموين الدور من حيث التوزيع والتخزين والتدبير وتسلم الأموال والتبرعات التي تصل لقيادة الدور، فقد عين عمران راشد القطعاني رئيسًا لإدارة دور البراعصة والدرسة، وعين التواتي العرابي رئيسًا لإدارة دور العبيدات والحاسة، وعين الصديق بوهزاوي مأمورًا للأعشار، ويتبع عمر المختار مباشرة، وعين داود الفسي رئيسًا لإدارة دور العواقير[1].

٢- يقوم كل دور بتعويض الشهداء من المقاتلين بآخرين من قبائلهم، وهكذا لا يتأثر الدور كثيرًا لفقد الشهداء، فبعد كل معركة يتم حصر الشهداء، وإلى أي القبائل ينتمون، ثم يرسل إلى كلِّ قبيلة العدد الذي يجب أن تعوضه عن شهدائها، وإذا لم تجد العدد المطلوب تدفع لقيادة الجهاد ١٠٠٠ فرنك عن كلِّ شهيد لكي يجند بها العدد اللازم.

٣- تتبارى مجموعات القبائل في تقديم البطولات والتضحيات حتى لا تكون موضع سخرية واستهزاء أمام بقية القبائل، وكان المجاهد الليبي يغضب غضبًا شديدًا ويحزن إذا فاته الاشتراك في إحدى المعارك أو تخلف عنها لسبب من الأسباب، وإبراهيم

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وحياته، ص١٠٥.

الفيل العريبي نموذج لهؤلاء؛ فقد فاته أن يشارك في معركة بلال، فحزن حزنًا شديدًا، إلا أن قادة الجهاد طمأنوه وقالوا له: «إنَّ أيام الجهاد كثيرة»، وفي اليوم التالي جرت معركة البريقة فاشترك فيها وهجم بفرسه على سيارات الأعداء وصار يقاتل حتى أكرمه الله بالشهادة.

٤- يسهل على كلِّ دور توفير الحماية اللازمة لذويه عن طريق الدوريات، والرباطات التي تراقب تحركات القوات الإيطالية أو أية تحركات غير عادية لمعرفتهم بمسالك المنطقة ودروبها وأماكن المياه بها، فعندما يحل الدور بمنطقة ما يضع دورية في كلِّ اتجاه لتراقب وضع القوات الإيطالية في تلك المنطقة، وتغطي أخبار تحركاتها للمجاهدين أولًا بأول حتى يكونوا على علم باتجاه وتحركات العدو، وحين يلتقي أفراد الدورية بالأعداء يطلقون ثلاث إطلاقات، وعند سماع تلك الإطلاقات يستعد الجميع لملاقاة الأعداء في الجهة التي سمع منها إطلاق الرصاص.

كما تقوم دوريات أخرى تعرف باسم (الرباط) بمراقبة الإيطاليين في مراكزهم التي يحتلونها للحصول على معلومات عن تحركاتهم عن طريق الأهالي الموجودين داخل تلك المدن، وكثيرًا ما يتعرض بعض هؤلاء الأهالي بسبب تعاونهم مع المجاهدين لعقوبة الإعدام، كما حدث مع سليمان بن سعيد العرفي الذي أدانته المحاكم الإيطالية بالتعاون مع المجاهدين، وحكمت عليه بالإعدام، فأعدم شنقًا[١].

كان نظام الأدوار يقوم على أساس قبلي، ويعتبر الدور وحدة عسكرية وإدارية واجتماعية يرأسها قائمقام، وتتمثل فيه السلطة الإدارية والعسكرية يساعده قومандان (قائد) أو أكثر حسب حجم الدور والقبائل المنضوية تحته.

وقد استخدم عمر المختار النظام العسكري العثماني، فبالإضافة إلى القائمقام والقومандان هناك الرتب الآتية: (بكباشي - يوزباشي - ملازم أول - ملازم ثاني - كوجك ضابط (ضابط صغير) - باش شاوش - شاوش - أمباشي).

وكانت الترقيات تتم على أسس ميدانية بناءً على ما يقدِّمه الشخص من أعمال

---

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وحياته، ص١٠٦.

وبطولات في ميادين المعارك والمواقف الدقيقة؛ إذ يرفع إلى عمر المختار تقرير من الرئيس المباشر بشرح الحالة التي استحق عليها المعني الترقية، ويصدر بذلك أمر كتابي من عمر المختار على بقية المجاهدين[١].

وكان هناك مجلس أعلى يرأسه المختار يتكون من: يوسف بورحيل، وحسين الجويفي، والفضيل بوعمر، ومحمد السركسي، وموسى غيضان، ومحمد مازق، ومحمد العلواني، وجربوع سويكر، وقطيط الحاسي، ورواق درمان، وفي حالة غياب عمر المختار يرأس المجلس يوسف بورحيل[٢].

وكان لكل من الأدوار مجلس يتكون من مشايخ القبائل وأعيانها من المعروفين بالحكمة وسداد الرأي، ومهمة هذا المجلس استشارية، وهو في حالة انعقاد دائم لمواجهة الطوارئ والإسهام في حل المشاكل التي قد تحدث بالدور[٣].

تاسعًا: معركة أم الشافتير (عقيرة الدم)

استمر المجاهدون في الجبل الأخضر يشنون الهجمات على القوات الإيطالية، وحققوا انتصارات رائعة من أشهرها موقعة يوم الرحيبة بتاريخ ٢٨ مارس ١٩٢٧م[٤] جنوب شرقي المرج قرب جردس العبيد، ووقعت بعد معركة الرحيبة معارك ضارية في بئر الزيتون (١٠ محرم ١٣٣٥هـ - ١٠ يوليو ١٩٢٧م)، ورأس الجلاز (١٣ محرم ١٣٣٥هـ - ١٣ أكتوبر ١٩٢٧م).

أراد الإيطاليون أن ينتقموا لقتلاهم في معركة الرحيبة، فشرعت تعد العدة للانتقام لقتلاها الضباط الستة وأعوانهم المرتزقة البالغ عددهم (٣١٢) في محاولة لإعادة معنوياتهم المنهارة، نتيجة لتلك الهزيمة الساحقة تمَّ إعداد الجيوش الجرارة، لتتخذ من الجبل الأخضر قاعدة لها على النحو التالي[٥]:

---

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، ندوة علمية، ص١٠٠.
(٢) انظر: برقة العربية للأشهب، ص٤٢٥.
(٣) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، ص١٠٢.
(٤) انظر: معجم معارك الجهاد، خليفة التليسي، ص٧٩.
(٥) انظر: جذور النضال العربي، محمد عبد الرزاق مناع، ص١٣٠.

١- الجنرال مازيتي القائد العام للقوات الإيطالية قائدًا لإحدى الفرق فوق الجبل الأخضر ٨ يوليو من مراوة: (أربع فرق أرترية - فرقة ليبية - أربع فرق - خيالة - بطارية أرترية).

٢- الكورنيل أسبيرا إنداتي: ٨ يوليو من الجراري (جردس الجراري) أو جردس البراعصة: (أربع فرق أرترية - فرقة ليبية - بطارية ليبية - فرقة غيرنظامية.

٣- الكورنيل منتاري: ٨ يوليو من خولان: (فرقة أرتريا - فرقة غير نظامية).

٤- الماجور بولي: ٩ يوليو غوط الجمل: (فرقة مهما ريستا - فرقة سيارات مصفحة - نصف فرقة ليبلير - فصيلين قناصة على الدبابات).

ويضاف إلى تلك الاستعدادت سلاح الطيران الذي انطلق من قواعده بالمرج ومراوة وسلنطة.

لقد كانت قوات الإيطاليين ضخمة مما تدلنا على خوفهم ورهبتهم من قوات المجاهدين.

كان عدد المجاهدين ما بين (١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠) مجاهد[1]، منهم حوالي ٢٥٪ من سلاح الفرسان، ويرفقهم حوالي ١٢ ألف جمل[2]، وما يثقل تحركاتهم من النساء والأطفال والشيوخ والأثاث علمت إيطاليا بواسطة جواسيسها بموقع المجاهدين في عقيرة أم الشفاتير، فأرادت أن تحكم الطوق على المجاهدين، فزحفت القوات الإيطالية نحو العقيرة بعد مسيرة دامت يومين كاملين، واستطاعت أن تضرب حصارًا حول المجاهدين من ثلاث جهات، وبقوات جرارة تكوَّنت من حوالي (٢٠٠٠) بغل، و(٥٠٠٠) جندي، و(١٠٠٠) جمل، بالإضافة إلى السيارات المصفحة والناقلة.

علم المجاهدون بذلك وأخذوا يعدون العدة لملاقاة العدو، فأعدوا خطة حربية، وقاموا بحفر الخنادق حول أطراف المنخفض ليستتر بها المجاهدون وخنادق أخرى لتحتمي بها الأسر من نساء وأطفال وشيوخ، وتمَّ ترتيب المجاهدين على شكل مجموعات

(١) انظر: جذور النضال العربي، ص١٣٧.
(٢) انظر: مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة السادسة، عام ١٩٨٤م، ص٩.

حسب انتمائهم القبلي، ووضعت أسر كل قبيلة خلف رجالها المقاتلين، وكان قائد تلك المعركة التقي الزاهد الورع الشيخ حسين الجويفي البرعصي، وكان عمر المختار من ضمن الموجودين في تلك المعركة.

كان الشيخ حسين الجويفي ممن تجرد للجهاد في سبيل الله، وطلب رحمة الله تعالى، وكان يقول: «أنا لا أريد قيادة ولا منصبًا، بل أريد جهادًا رغبةً في ثواب الله تعالى»[١].

كان ذلك الصِّنديد محل تقدير من قبل إخوانه، قال في حقه قائده الأعلى عمر المختار عقب استشهاده: «أتذكر حسين الجويفي عند اللقاء مع العدو أو عند قراءة القرآن الكريم وقت الورد»[٢].

كما عرف عنه أنه لم يبرح فرسه يومًا أثناء المعركة لينال من أسلاب العدو، بل يتركها للمجاهدين لعفته وقناعته بما يملك من أموال ومواشٍ.

لقد أسندت إليه قيادة المعركة لمعرفته بشعاب ودروب المنطقة التي كان يسكنها مع كونه أحد قادة الجهاد، وأحد المستشارين لعمر المختار، وقائمقام البراعصة والدرسة في فترة سابقة، فكان في تلك المعركة فوق جواده يجوب الميمنة والميسرة والقلب، وهو عاري الرأس لا يخشى الموت، يوزع صناديق الذخيرة على المقاتلين تارة، ويطلق عبارات التشجيع مرة أخرى، ويقوم بتحريك جبهات القتال، وتنظيم هجومات المجاهدين، وترتيب صفوفهم.

وسقط الشهداء واشتدت المعركة، وارتفعت درجة حرارة البنادق بسبب استمرار إطلاق العيارات النارية، واستعمل المجاهدون الخرق البالية لتقيهم حرارة مواسير البنادق التي لا تطيقها يد المجاهد، وكان بعض المجاهدين يملك بندقيتين يستعمل الواحدة مدة، ثم يتركها حتى تبرد ويتناول الأخرى.

وخصص القائد حسين فرقة من المجاهدين للتصدي للمصفحات المهاجمة من

(١) انظر: مجلة البحوث، السنة السادسة، ١٩٨٤م، العدد الأول، ص١٠.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٠، ١١.

الجنوب، وعددها ثلاثون مصفحة، ولعب كومندار طابور المعية المجاهد سعد العبد السوداني دورًا بارزًا، وأظهر شجاعة نادرة بأن قاد تلك الفرقة المواجهة للمصفحات الإيطالية، وتمكن من تدمير أغلبها مع رجاله، وانتزع المجاهد رمضان العبيدي العلم الإيطالي من على أحد المصفحات، وبدأ الجيش الإيطالي في التقهقر ودخل الرعب نفوس ضباطه وجنوده الذين وجدوا فرصة الحياة في الهروب، وبالرغم من قصف الطائرات إلا أن الإيمان القوي، واحتساب الأجر عند الله كان دافعًا مهمًا لدى المجاهدين.

كانت خسائر المجاهدين في الأرواح ٢٠٠ شهيد من بينهم القائمقام محمد بونجوى المسماري الذي استشهد في اليوم الثالث إثر إصابته بجرح مميت، وكانت له مكانة عظيمة في نفوس المجاهدين، ووالد زوجة عمر المختار الذي بكاه بكاءً حارًا، وقال بعد أن سمع باستشهاده: «راح الكل يا عين الجيران وأصحاب الغلا»[١].

واستشهد كل من جبريل العوامي، وستة من قبيلة العوامة، ومحمد بومعير الدرسي، والشلحي الدرسي، ومحمد الصغير البرعصي، وفقد المجاهدون في تلك المعركة عددًا كبيرًا من الإبل والمواشي، وتمَّ حرق بعض الخيام من جراء الغارات الجوية.

ومكث المجاهدون طيلة الليل يدفنون الشهداء وينقلون الجرحى، وقبل بزوغ الفجر رحلوا عن ذلك الموقع، بهدف الإعداد والاستعداد للقاء العدو في موقع جديد من مواقع القتال[٢]، وأصبحت القوات الإيطالية كما يقول تيروتسي: «أصبحت الآن منهوكة القوى، تخور إعياء من شدة المعارك المستمرة منذ فترة طويلة دون توقف...»[٣].

وكانت نتائج تلك المعركة فيما يلي:

١- كانت معركة أم الشفاتير بداية نقطة فاصلة في اتباع استراتيجية جديدة عند عمر المختار، وهي ضرورة إعادة تنظيم المجاهدين على هيئة فرق صغيرة[٤]، تلتحم مع العدو عند الضرورة، وتشغله في أغلب الأوقات مما يقلل في عدد الشهداء أثناء المعارك، ويلحق

---

(١) انظر: برقة العربية، ص٤٤٠.
(٢) انظر: مجلة البحوث، السنة السادسة، ١٩٨٤م، العدد الأول، ص١٦.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٦.
(٤) انظر: تاريخ ليبيا، جون رايت، ص١٥٣.

الخسائر الفادحة بالأعداء وفق التكتيك الجديد لحرب العصابات (اهجم في الوقت المناسب، وانسحب عند الضرورة).

٢- لمح عمر المختار بنظره الثاقب ملامح السياسة الفاشستية الجديدة، وهي الإبادة والتدمير (للمصالح والرجال)، فاتخذ إجراءات ترحيل النساء والأطفال والشيوخ إلى السلوم؛ لحمايتهم من الغارات الجوية الإيطالية، وتيسيرًا لسهولة تحرك المجاهدين وفق ما يتطلبه الموقف الجديد.

٣- كما سُمح لأحد الأخوين بالهجرة للمحافظة على وريث لهما فيما بعد، حتى يكون دائمًا هناك من يطالب بحقوقه، ويزعج المستعمرين الطليان، وللتعريف بالقضية الليبية بتلك البلدان، ونتج عنه فيما بعد تشكيل الجاليات الليبية في الخارج[١].

٤- أيقن الإيطاليون أنه لا جدوى من الاستمرار في العمليات العسكرية ضد المجاهدين، مما كان سببًا في توقفها طلية سنة ١٩٢٨م[٢].

لقد تحققت لموسوليني ما قاله من قبل: «إننا لا نحارب ذئابًا كما يقول غراسياني، بل نحارب أسودًا يدافعون بشجاعة عن بلادهم.. إن أمد الحرب سيكون طويلًا»[٣].

عاشرًا: استشهاد حسين الجويفي والمختار بن محمد في معركة أبيار الزوزات (١٣/٨/١٩٢٧م)

استشهد الشيخ حسين الجويفي رئيس دور البراعصة، وكان صاحب مكانة عظيمة عند المختار[٤]، كان حسين الجويفي سبّاقًا للخيرات، حريصًا على الشهادة في سبيل الله، وكان يحرص على الخروج للمعارك مع مرضه، حتى إن عمر المختار في إحدى المعارك طلب منه أن يبقى حفاظًا على صحته، وقال له: «الجايات أكثر من الفايتات، والطليان لا يبطلوا لمحاربتنا، ونحن لا نبطل الهجوم عليهم، وستشبع من القتال؛ فأيامه كثيرة»[٥].

---

(١) انظر: كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام (١٩٢-١٩٥٠) تيسير بن موسى.
(٢) انظر: مجلة البحوث، السنة السادسة، العدد الأول، ص١٧.
(٣) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، ص١٤.
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٨٤.
(٥) انظر: عمر المختار للأشهب، ص٨١.

لقد تأثر عمر المختار لاستشهاد القائد العظيم الجويفي، ووقف عند قبره وقال:

شـــهير لَسَـــم وَافِ الـــدين تمَّـــا غفـــير في فـــاهق خـــلا

لقد فقد عمر المختار عددًا كبيرًا من رفاقه الأبطال الذين وقعوا شهداء في ساحة الوغى، وكان من بينهم المختار ابن شقيقه محمد فشقَّ عليه فقده، رغم أنه لا يزيد مكانة عند عمه السيد عمر المختار أكثر من إخوانه المجاهدين، لقد كان ابن أخيه عائلًا له يهتم بشئون أسرة عمر المختار، ويشرف على شئونه الخاصة وخدمته الشخصية، وكان بمثابة الابن؛ حيث لم يكن لعمر ابن يتولى شئون العائلة؛ لأن ابنه الوحيد محمد صالح كان لا يزال طفلًا، ثم إن السيد عمر المختار تعوَّد مصاحبة الفقيد منذ سنة ١٩١٦م، وإلى جانب كل ذلك؛ فإنه من أبطال الجهاد ومن الأبناء البررة، لقد احتسب المختار وأظهر التجلد، وصبر صبرًا جميلًا، وكان يقول لكلِّ مَن جاء لتعزيته: «إنَّ كلَّ فرد من رفاقي المجاهدين هو عندي بمنزلة المختار.. إنني فقدت مختارًا واحدًا، ولكنني أعيش بين عددًا من المختارين كل منهم يملأ مكان ابن أخي»، وردد قول الشاعر الشعبي:

الـــدنيا أمفيـــت الله مـــن واليهـــا ويـــن الصـــحابا قبلنـــا أو نبيهـــا

ويـــــن بـــــون يـــــادم ويـــن الشـــيوخ الـــلي كبـــار مقـــاوم

الـــلّي ينـــدهوا للعبـــد هـــو والخـــادم وَنْ جـــاهم الطالـــب حاجتـــا يقضـــيها

ومعنى الأبيات:

إن الله ﷻ ولي الدنيا ووارثها، وكل ما في هذه الدنيا مصيره الفناء، فأين رسول الله وصحابته، وهم أكرم خلق الله عليه، وأين السادة الكبار الذين سبقونا، وكان من شمائلهم المناداة للخدم من أجل خدمة الضيف، وكل من جاء يطلب حاجة تقضى له.

ومما قاله عمر المختار من الشعر:

يـــا عـــين كفـــي راه يومـــك قـــادم صـــيور البنـــا دم حفرتـــا ماليهـــا

ومعنى البيت أنه يخاطب نفسه بأن تكف عن البكاء؛ لأن أجله في طريقه إليه ومصير بني آدم هو تلك الحفرة (القبر) التي يملؤها رفاته بعد الموت[1].

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٠٠، ١٠١.


صفحة فارغة




الفصل الثاني

استمرار العمليات
والدخول في المفاوضة




صفحة فارغة

الفصل الثاني
استمرار العمليات والدخول في المفاوضة

في سبتمبر عام ١٩٢٧م: غزت جموع الزاوية الجخرة ومرسى بريقة وجالو وأوجلة، وأنزلوا بالطليان خسائر فادحة، واشتدت مقاومة المجاهدين في الجبل الأخضر على الرغم من احتلال الطليان للواحات ومراكز السنوسية الهامة، فلم يعد هناك مناصًا من أن يعيد الطليان النظر في خططهم، مما أدى إلى وقوع أزمة كبيرة في روما، وبدأت الحكومة تبحث بصورة جدية وسائل إخماد المقاومة، وترسم الخطط السياسية الجديدة التي ترى ضرورة التقيد بها في كلٍّ من برقة وطرابلس، وقد اضطر فيدرزوني وزير المستعمرات، وديبونو والي طرابلس، وتيروتزي والي برقة للاستقالة في ديسمبر ١٩٢٨م، فعين ديبونو وزيرًا للمستعمرات، وأعلن موسوليني توحيد الإدارة في القطرين الليبيين، وعيَّن الماريشال بادوليو حاكمًا على طرابلس وبرقة.

كان مجيء بادوليو إلى ليبيا بداية مرحلة الجهاد الحاسمة بالنسبة للمجاهدين، وكان تاريخ تعيينه في شهر يناير من عام ١٩٢٩م، وكان برنامجه الجديد يتلخص في تخفيض الجيش إلى القدر الذي يكفي للقيام (بحرب العصابات)، والمحافظة على هيبة الحكومة، مع إنفاق الأموال المتوفرة في مد الطرق في الجبل الأخضر مما يسهل عليه التنقلات العسكرية، فإذا ما أتم له ذلك قام بهجوم شامل كاسح على المجاهدين يقضي على المقاومة نهائيًا، ومن أجل ذلك سعت إيطاليا إلى مفاوضة السيد عمر المختار لتهدئة الأحوال[1]، فكان برنامج بادوليو مبنيًا على كسب الوقت أولًا ثم العمل رويدًا رويدًا من أجل تقوية المراكز المحتلة.

واهتم بادوليو بكسب الرأي العام وتخويفه، فأعلن العفو عن الأفراد الذين يسلمون أنفسهم وسلاحهم مختارين للحكومة، ويتوعد كل معاند بالعقوبة الصارمة، وقد أسقطت الطائرات هذا المنشور من الجو على البلدان والقرى والنواجع في أنحاء ليبيا

(١) انظر: حياة عمر المختار، ص١١٩.

جميعها، وكان لهذا المنشور آثار مباشرة، فظنَّ بعض زعماء ليبيا بمدينة طرابلس الضعف ووهن العزيمة في الحكومة، وقام أحمد سيف النصر ومحمد بن الحاج حسن (من قبيلة المشاشة) بالزحف على منطقة القبلة لجمع البدو المحاربين وإرسالهم إلى الجبل الأخضر حتى يعززوا قوات المجاهدين في الجبل، ويرغموا الحكومة على اتخاذ لهجة متواضعة عند بدء المفاوضات مع عمر المختار وصحبه، وشرع صالح الأطيوش ينظم في جبل الهروج جماعات من المحاربين للاشتباك مع الطليان في برقة أو في طرابلس.

وفي منتصف فبراير ١٩٢٩م نزلت قوات المجاهدين من الهروج الأسود للانقضاض على النوفلية من جانب وعلى أجدابية من جانب آخر، فاجتمعت من الجيفة ثم انقسمت ثلاث فرق التحمت إحداها مع الطليان في معركة عند قارة سويد في ٥ مارس، واشتبكت الثانية معهم في معركة كبيرة عن النوفلية في ١٤ مارس، واتجهت الثالثة بقيادة عبد القادر الأطيوش من الجيفة صوب منطقة العقيلة في ٢٣ مارس، ثم استقر المجاهدون في جبل سلطان، واضطر المجاهدون إلى الانسحاب أمام قوات العدو العظيمة صوب وادي الفارغ[(١)].

كانت لتلك الأعمال أكبر الأثر في إقناع بادوليو بضرورة العمل فورًا من أجل استمالة المجاهدين إلى المفاوضة إذا أراد أن يضع برنامجه الواسع موضع التنفيذ، فبدأ من ثم متصرف المرج الكولونيل باريلا من أوائل مارس ١٩٢٩م يطلب الاجتماع بالسيد عمر المختار للمفاوضة في شروط الصلح، وحدَّد باريلا موعدًا للاجتماع، غير أن باريلا لم ينتظر جواب المختار، وأراد أن ينتهز فرصة اطمئنان المجاهدين لقرب بداية المفاوضات وانشغالهم بعيد الفطر المبارك، فانقض الطليان على المجاهدين وهم يقومون بصلاة العيد (١٣٤٧هـ)، وردهم المجاهدون على أعقابهم، ولكن مناوشات صالح الأطيوش وجماعته ونشوب المعارك المستمرة اضطرت بادوليو إلى تحديد المسعى، فكلف متصرف درنة دودياشي لتمهيد المفاوضة مع عمر المختار وصحبه، فاتصل بالمجاهدين واقترح على السيد عمر أن يكون الاجتماع يوم ٢ مارس في منزل علي باشا العبيدي للبحث في موضوع

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٣٢١.

الصلح، وأصر عمر المختار على أن تظهر الحكومة الإيطالية حسن نواياها، ويكون ذلك بإطلاق السيد محمد الرضي وإعادته إلى برقة، واضطرت الحكومة الإيطالية للرضوخ، وأحضرت السيد محمد الرضي من جزيرة أوستيكا إلى بنغازي، واجتمع بعد ذلك عمر المختار مع مندوب الحكومة دودياشي في منزل على العبيدي في ٢٠ مارس، وحضر الاجتماع عدد كبير من مشايخ البلاد وأعيانها، ثم أجلت المفاوضة إلى أسبوع وانعقد اجتماع آخر في سانية القبقب، ولم يستطع المتفاوضون الوصول إلى نتيجة مجدية، واجتمع المختار مع باريلا في الشليوني في الجبل الأخضر في يوم ٦ أبريل، ولم يصل المتفاوضون إلى نتيجة.

وفي ٢٠ أبريل: عادت المباحثات في بئر المغارة (في وادي القصور)، وقد حضر هذا الاجتماع محمد الرضي والشارف الغرياني، وخالد الحمري، وعبد الله فركاش، ورويفع فركاش، وعلي باشا العبيدي، وعبد الله بلعون مدير المرج، وحضر كل هؤلاء اجتماع المختار بالسيد رضا، ثم خيَّر مندوب الحكومة عمر بين ثلاثة أمور: (الذهاب إلى الحجاز، أو إلى مصر، أو البقاء في برقة)، فإذا رضي بالبقاء في برقة أجرت عليه الحكومة مرتبًا ضخمًا وعاملته بكلِّ احترام، ولكن المختار رفض هذه الشروط، وكان السيد رضا يخضع لرقابة صارمة منعته من تبادل الرأي مع عمر المختار.

واستؤنفت المفاوضات في هذه المرة في مكان يسمَّى (قندولة) بالقرب من سيدي رويفع، وحضر اجتماع قندولة باريلا وكمباني وعدد من الضباط والأعيان، وكان سيشلياني قد بيَّت النية على الإيقاع بالمختار وأسره، ولكن عمر المختار احتاط للأمر ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء.

وفي ٢٦ مايو بدأت المفاوضات من جديد، فحضر المختار إلى مكان قريب من القبقب، وفي هذا الاجتماع دارت المباحثات على أساس ما جاء في منشور بادوليو، فعرض دودياشي شروط الحكومة وهي:

أولاً: عودة السيد إدريس، وأحمد الشريف، والسيد صفي الدين، وسائر أعضاء الأسرة السنوسية إلى البلاد على أن يكونوا تحت إشراف الحكومة، وأن يتم رجوعهم

بترخيص من الحكومة بوصفهم مهاجرين يبغون العودة إلى أوطانهم، وتعهدت الحكومة بمعاملتهم المعاملة اللائقة بهم على غرار ما تفعله مع السيد الرضي.

ثانيًا: احترام الزوايا وأوقافها ودفع المرتبات لشيوخها.

ثالثًا: إرجاع أملاك الأسرة السنوسية.

رابعًا: إعفاء الزوايا وأملاك السنوسية من الضرائب.

خامسًا: تسليم المجاهدين نصف ما معهم من أسلحة لقاء ألف ليرة إيطالية تدفع ثمنًا لكلِّ بندقية يسلمونها، وعلى أن ينضم بقية المجاهدين المسلحين إلى المنظمات التي تنشئها الحكومة تحت إشرافها وإدارتها، وذلك لمدة معينة تحددها الحكومة فيما بعد في نظير أن تعد أماكن لإقامتهم يسهل على الحكومة إمدادهم فيها بالمؤن، فضلًا عن إحكام الرقابة عليهم.

سادسًا: إبعاد كل الإخوان السنوسيين من الأدوار، وتتعهد الحكومة بإعطائهم المرتبات التي تناسب مراكزهم.

فاعترض المختار على تسليم الأسلحة وحل الأدوار، وأصر على بقاء الأدوار تحت قيادة السيد حسن الرضي على أن يكون للحكومة نوع من الإشراف العام فحسب، وأيد رأي المختار عبد الحميد العبار، ورفض دودياشي عروض المختار، وانفض الاجتماع على أن يعرض دودياشي هذا الحل، كما طلب المختار من نائب الوالي في برقة حتى يفصل فيه سيشلياني بنفسه[1].

وبعد أربعة أيام فقط طلب دودياشي مقابلة المختار في قندولة (٣٠مايو)، فجاء المختار إلى نجع علي العبيدي شيخ العبيدات بالقرب من القبقب، وحضر معه السيد حسن الرضي، والفضيل بوعمر، وعبد الحميد العبار، وحامد القماص وآخرون، ومعهم حرس يتألف من مائة وخمسين فارسًا، وجاء من طرف الحكومة دودياشي وباريلا، كما حضر هذا الاجتماع علي العبيدي، وخالد الحمري، ورويفع فركاش، وأظهر فيها المختار

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٩٢، ٢٩٦.

استعداده للتفاهم طالما أنه يؤدي إلى المحافظة على كرامة السنوسية، وفضلًا عن ذلك؛ فقد أصر المختار على عدم حدوث أي اتفاق بينه وبين الحكومة الإيطالية إلا إذا حضر مندوب عن الحكومة المصرية وآخر عن الحكومة السنوسية كدليل على رغبة الطرفين الصادقة في الاتفاق بصورة قاطعة، ولكن دودياشي اعترض على هذا الطلب، وقال بأن الطليان معروفون بوفائهم للعهود وحفظهم للمواثيق، فردَّ عليه عمر المختار، وذكر ما فعله الجنرال متزتي بقبيلة العبيدات، وهي من القبائل التي سالمت الطليان، عندما اغتصب هؤلاء كل ما تمتلكه هذه القبيلة، حتى إنهم نزعوا حلي النساء من آذانهن، وذكر ما فعله لويللو مع أسرة إبراهيم من قبيلة العواقير، وقد سالم هؤلاء الطليان كذلك، فأخذ لويللو منهم أربعين رجلًا قتلهم رميًا بالرصاص، ثم جعل السيارات تمر على جثثهم، فما زالت السيارات تدهسهم ذهابًا وإيابًا حتى اختلطوا بالتراب، وتدخل بعض الحاضرين لتهدئة الموقف، وتمسك المختار بحقوق الحركة السنوسية وزعامتها، وأصر على أن يكون للقطر البرقاوي الطرابلسي نفس الامتيازات التي تتمتع بها جاراته مصر وتونس، وكان عمر المختار وحده هو الذي يتحدَّث، وأما سائر المجاهدين؛ فقد صمتوا، ثم قرَّر الذهاب إلى معسكره، وقال: «إذا أراد المتصرف دودياشي الحديث؛ فإن موعد ذلك جلسة أخرى».

وبعد أيام اتصل علي العبيدي بالسيد عمر، وقبل عمر المختار استئناف المفاوضة، فعقد اجتماع آخر في يوم ٧ يونيه حضره دودياشي وباريلا ثم سيشلياني الذي جاء الاجتماع موفدًا من قبل الماريشال بادوليو بغية الوصول إلى اتفاق حاسم مع العرب، وجدَّد الطليان عروضهم القديمة، وتمسك المختار بمطالبه، وأصر على حضور مندوبين من قبل الحكومتين المصرية والتونسية، ووعد سيشلياني بأن يحمل مطالب المختار إلى بادوليو.

وفي ١٣ يونيه: اجتمع نائب الوالي سيشلياني بالسيد عمر في قلعة شليوني، وأظهر المختار رغبته الصادقة في الاتفاق إذا أقرت الحكومة الإيطالية مطالبه، وهي نفس المطالب السابقة، وتأجل الاجتماع إلى يوم آخر حتى يتم الاتفاق النهائي بحضور والي طرابلس وبرقة نفسه.

وفي يوم ١٩ يونيه: حصل الاجتماع سيدي رحومة المشهور بحضور بادوليو

وسيشلياني وعدد من الطليان والأعيان كالشارف الغرياني، وعلي باشا العبيدي، وظلَّ عمر المختار متمسكًا بضرورة حضور مندوبين عن الحكومتين المصرية والتونسية، وعرض شروطه النهائية بحضور والي ليبيا، فقرأ الفضيل بوعمر هذه الشروط ووافق الطليان عليها، ثم تسلمها بادوليو ووعد بأن يعمل على حضور مندوبي الحكومتين المصرية والتونسية في اجتماع يحدد فيها بعد قريبًا، واتفق الفريقان على عقد هدنة لمدة شهرين حتى يتسنى لكل منهما مراسلة مرجعه[1].

وقال بادوليو: «إنه على استعداد تام لقبول عودة أمير البلاد السيد محمد إدريس إلى برقة مادام المختار والمجاهدون يصرون على ذلك».

وكانت الشروط التي عرضها المختار تكفل المحافظة على هوية الشعب وعقيدته ودينه ولغته، وتحفظ أوقاف الزوايا، وتعطي عمر المختار الحق في أخذ الزكاة الشرعية من القبائل، ومن أهم هذه الشروط:

١- ألا تتدخل الحكومة في أمور ديننا، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية معترفًا بها في دواوين الحكومة الإيطالية.

٢- أن تفتح مدارس خاصة يدرس فيها التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، وسائر العلوم.

٣- أن يلغى القانون الذي وضعته إيطاليا، والذي ينصُّ على عدم المساواة في الحقوق بين الوطني والإيطالي إلا إذا تجنس الأول بالجنسية الإيطالية[2].

كما كانت شروط المجاهدين تنصُّ على إرجاع جميع الممتلكات التي اغتصبتها الحكومة من الأهالي، وإعطائهم مطلق الحرية في حمل السلاح وجلبه من الخارج إذا امتنعت الحكومة عن بيع السلاح لهم، كما نصت هذه الشروط على أن يكون للأمة رئيس منها تختاره بنفسها، ويكون لهذا الرئيس مجلس من كبار الأمة له حق الإشراف على

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٩٨.

(٢) انظر: شروط عمر المختار في قضية ليبيا، ص١١١-١١٤.

مصالحها، كما يكون للقاضي الإسلامي وحده الفصل بين المسلمين، وطالب عمر المختار بإعلان العفو الشامل عن جميع من عدتهم إيطاليا مجرمين سياسيين سواء كانوا داخل ليبيا أم خارجها، وإطلاق سراح المسجونين، وسحب كل المراكز التي استحدثها الطليان في أثناء الحرب بما في ذلك مراكزهم في الجغبوب وجالو[١].

كما اشترط بأن لزعماء المسلمين الحق في تأديب مَن يخرج عن الدين أو يهزأ بتعاليمه أو يتهاون في القيام بواجباته[٢].

إنَّ حرص عمر المختار على رفض الخضوع لأي إرادة أو سلطة غير سلطة الله واضح في حياته، ويظهر ذلك جليًا في شروطه، فقد كان دائمًا مصرًا على شرط تطبيق الشريعة الإسلامية بين المسلمين، ورفض كل ما عداه من قوانين وضعية في مفاوضاته[٣].

أظهر بادوليو قبول الشروط، ولكنه نكث بوعوده، وأخذ يستعد للقضاء على المجاهدين، وشرع الطليان يبذرون بذور الشقاق في صفوف المجاهدين على أمل أن يضعفوا من قوتهم، وفي اجتماع سيدي رويفع ادَّعى سيشلياني أنه لا يمكن إبرام الاتفاق النهائي إلا في بنغازي[٤].

أراد المجاهدون أن يقطعوا حجة الطليان، فاتفقوا على أن يحضر اجتماع بنغازي السيد الحسن رضا السنوسي، وكان عمر المختار مقتنعًا بعدم جدوى الاجتماع، ولكنه اضطر مكرهًا، وعاد الحسن يحمل شروطًا إيطالية مجحفة، فرفضها عمر المختار والمجاهدون، وكتب المختار إلى نائب الوالي يخبره برفض الشروط الإيطالية جملةً وتفصيلًا، ويلفت في هذه الرسالة نظر الحكومة الإيطالية إلى الشروط السابقة التي تسلمها المارشال بادوليو من السيد عمر نفسه، وقطع على نفسه عهدًا بالإجابة عنها بعد دراستها؛ إذ لا يوجد سبيل لحل المشكلة بدونها، وطلب عمر في نفس الرسالة تحديد موعد لمقابلة الجنرال سيشلياني نائب الوالي، وفي حالة الرفض أو عدم الإجابة يكون السيد عمر المختار في حل مما قيدته

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٢٩٨.
(٢) انظر: عمر المختار نشأته وحياته، ص٦٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص٦٢.
(٤) انظر: السنوسية دين ودولة، ٢٩٩.

به آداب المجاملة في انتظار نتيجة المفاوضات، وسوف تعود الأمور لما كانت عليه، وكان جواب إيطاليا هو أنها على استعداد، ولا داعي للإنذار بإعادة الحرب[١].

لما ذهب الحسن بن الرضي إلى بنغازي تأثر ببعض أقوال الليبيين التابعين للحكومة الإيطالية، وقبل أن يوقِّع على شروط الصلح التي خالفت ما طلبه المجاهدون، فلما رفض عمر المختار تلك الشروط عزَّ على الحسن أن ينقض المختار كلمته، وانفصل بجماعته من البراعصة والدرسة، وكانوا يبلغون حوالي الثلاثمائة، واتخذ مكانه في غوط الجبل، وهو مكان قريب من مراكز الطليان في مراوة[٢].

كان عمر المختار بجانب إيمانه الراسخ واسع الأفق عالمًا بواقعه مدركًا لما يجري حوله متابعًا له، وقد كان ذلك أكبر عون له بعد الله على صحة مواقفه وقوتها التي فرضت الاحترام على أعدائه قبل أصدقائه، وما أعظم أن يجتمع الإيمان والفقه بالواقع، وما أقبح أن يتفرقا، ولئن كان هذا واضحًا جليًا في كلِّ المواقف التي خاضها عمر المختار -رحمه الله- وآرائه التي قالها إلا إنه يتجلى كأوضح ما يكون في إدراكه لعدم جدوى المفاوضات السياسية[٣].

أولاً: النداء الأخير

خاطب السيد عمر المختار المجاهدين وأبناء شعبه قائلًا: «فليعلم إذن كل مجاهد أن غرض الحكومة الإيطالية إنما بث الفتن والدسائس بيننا لتمزيق شملنا وتفكيك أواصر اتحادنا ليتم لهم الغلبة علينا واغتصاب كل حق مشروع لنا، كما حدث كثير من هذا خلال الهدنة، ولكن بحمد الله لم توفق إلى شيء من ذلك، وليشهد العالم أجمع أن نوايانا نحو الحكومة الإيطالية شريفة، وما مقاصدنا إلا المطالبة بالحرية، وإن مقاصد إيطاليا وأغراضها ترمي إلى القضاء على كلِّ حركة قومية تدعو إلى نهوض الشعب الطرابلسي وتقدُّمه... فهيهات أن يصل الطليان إلى غرضهم مادامت لنا قلوب تعرف أن في سبيل

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١١١، ١١٢.
(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٣٠٠.
(٣) مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثاني، ١٩٨٨، ص٨٧.

الحرية يجب بذل كل مرتخص وغالٍ».

ثم ختم المختار هذا النداء بقوله: «لهذا نحن غير مسئولين عن بقاء هذه الحالة الحاضرة على ما هي عليه حتى يتوب أولئك الأفراد النزاعون إلى القضاء علينا إلى رشدهم، ويسلكوا السبيل القويم، ويستعملوا معنا الصراحة بعد المداهنة والخداع»[1].

وقد نشرت بعض الصحف المصرية هذا النداء في ٢ يناير ١٩٢٩م، من كان عبدًا لله يستحيل أن يرضى بأن يكون عبدًا لحكومة ظالمة كافرة أو لدنيا أو مال أو لهوى، فأكثر الناس أحرارًا وتحقيقًا للحرية على مفهومها الصحيح ذلك العبد الذي رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدﷺ نبيًّا ورسولًا.

ثانيًا: غدر وخيانة

لقد نقضت الحكومة عهودها وغدرت بالمجاهدين، وكان السيد حسن الرضي أول من ذاق مرارة غدرهم، فقد غادر المعسكر في غوط الجبل جماعة من عائلة عريف، وانتهز الطليان هذه الفرصة؛ فطلبوا من الحسن أن يتقدم بالدور إلى ناحية مراوة، وأجاب الحسن رغبتهم، وعندئذٍ سيرت الحكومة قوة كبيرة على الدور لجمع الأسلحة من أتباعه بدعوى أن رجاله قد غزوا بعض الأهلين في مراوة، وأبدى الحسن ورجاله معارضة شديدة، ولكن معارضتهم هذه سرعان ما أكدت للطليان -على حد قول هؤلاء- أن الدور كان مركزًا لدعاية سنوسية خطيرة، وأن حل الدور قد بات لذلك أمرًا لامناص منه ولا محيد عنه، وكان مما جعل الطليان ينقلبون على الحسن أن امتنع في المدة الأخيرة عن إجابة رغبتهم عندما طلبوا منه الانتقال إلى بنغازي، وعلى ذلك؛ فقد اشتبكت القوات الإيطالية مع الدور في قتال عنيف ذهب ضحيته كثير من المجاهدين، ووقع الباقون في أسر هذه القوات.

وفي ١٠ يناير ١٩٣٠م: قبض الطليان على الحسن نفسه، وساقوه أسيرًا إلى بنغازي، ثم ما لبثوا حتى نفوه إلى جزيرة أوستيكا، ثم إلى فلورنسه بعد ذلك، وقد بقي الحسن منفيًا بهذه المدينة الأخيرة حتى وفاته في عام ١٩٣٦م، وبعد ذلك اندلعت المعارك بين

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٣٠٣.

المجاهدين والطليان في الجبل الأخضر، وكانت الطائرات الإيطالية تلقي قذائفها على معسكرات المجاهدين، ونشطت عمليات الطليان العسكرية بعد أن غدروا بالحسن، وهاجموا دور المجاهدين في وادي مهجة (٢٨ يناير ١٩٣٠م)، وألقت الطائرات قذائفها على العرب، وانتشرت المعارك في منطقة الجبل حتى أقفلت جميع الطرق[١].

ثالثا: تعيين الجنرال غراسياني حاكما لبرقة ونائبا للمرشال بادوليو الحاكم العام

كان الجنرال غراسياني عند قومه معظمًا ومقدمًا، وقد قام بأعمال عسكرية في فزان شنيعة للغاية، واستطاع أن يقضي على حركة الجهاد في فزان بدخوله غات في ٢٥ فبراير ١٩٣٠م، وكان نصرانيًّا حقودًا على الإسلام والمسلمين لم يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة.

بعد بقائه في ليبيا لمدة تسع سنوات متتالية وبعد احتلاله الغاشم لفزان دعا إلى إيطاليا لتشريفه وتكليفه.

ذكر في مذكراته وداعه لطرابلس، فقال: «وداعًا طرابلس أرض آلامي وعذابي، غير أنه تبقى في روحي، وداخل نفسي ذكريات كل حجر مرتفع في جبالك، وفي صحرائك الواسعة، ولكن لن ينطفئ أبدًا ألمي وعذابي من أجل إفريقيا، وأنت يا طرابلس.

وفي روما كانت تنتظرني الاحتفالات التي يطمع كل جندي مخلص أمين يحظى برضا وتصفيق الزعيم الدوتشي (موسوليني).. وقد نلت هذا وصفق الزعيم ومجلس الأمة الإيطالي لي في جلسة بتاريخ ٢١/ ٣/ ١٩٣٠م، هذا الاحتفاء وهذا الرضا كان أعظم مكافأة في حياتي؛ فلقد جددت في نفسي حب العمل والتضحية في سبيل الواجب الكبير الذي ينتظرني في ليبيا بجسم متعب في الأعمال التي تحملها في الماضي، ولكن بالروح والقلب الحريص والحاضر للعمل.

وبعد أن استلمت التعليمات العليا سافرت على السفينة إلى برقة، ويوم ٢٧/ ٣/ ١٩٣٠م وصلت بنغازي التي غادرتها سنة ١٩١٤م خلال الحرب العالمية الأولى،

---

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٣٤.

وكانت رتبتي ملازم أول في الجيش الإيطالي.

إنَّ التعليمات التي صدرت عن رغبة الزعيم الدوتشي، وقسمت ونظمت من قبل صاحب السيادة دي بونو والفريق الماريشال بادوليو، بيَّنوا فيها تصميم الحكومة الفاشستية القضاء المبرم على الحركة الوطنية (الثورة) مهما كلف ذلك وبكل الطرق والوسائل؛ لأنها القضية البرقاوية[١].

والتعليمات هي:

١- تصفية حقيقية لكلِّ العلاقات بين الخاضعين وغير الخاضعين من الثوار سواء في قاعدة العلاقات الشخصية أو الأعمال والحركات التجارية.

٢- إعطاء الخاضعين أمنًا وحمايةً، ولكن مراقبة لكلِّ نشاطاتهم.

٣- عزل الخاضعين عن أي تأثير سنوسي ومنع أي كائن منعًا باتًّا من قبض أي مبالغ من الأعشار والزكاة.

٤- مراقبة مستمرة ودقيقة في الأسواق وقفل الحدود المصرية بكلِّ صرامة بحيث تمنع أي محاولة تموين لقوافل العدو (أي: المجاهدين).

٥- تنقية الأوساط المحلية التي توجد بها عناصر تدعي الوطنية ابتداءً بالمدن الكبيرة وخاصةً بنغازي.

٦- تعيين عناصر غير نظامية من الطرابلسيين لكي يكونوا قوة مضادة للمجاهدين، وتعني بتطهير الإقليم من كلِّ تمرد أو ثورة.

٧- حركة دقيقة وخفية لكلِّ قواتنا (الطليان) المسلحة في المنطقة لخلق جو مذبذب ضد كل (الأدوار) والمعسكرات، والضغط عليها حتى تتكبد الخسائر وتشعر بأن قواتنا موجودة دائمًا، وفي كلِّ مكان مستعدة للهجوم.

٨- الاتجاه السريع للاحتلال الكامل لكلِّ أراضي مستعمرة الكفرة[٢].

---

(١) انظر: برقة الهادئة، للجنرال غراسياني، ص٨٢، ٨٣، ٨٤.

(٢) انظر: برقة الهادئة، ص٨٤، ٨٥.

هذا هو جزار ليبيا غراسياني الذي جاء محملًا لتنفيذ الأوامر السالفة الذكر من أسياده في روما الكاثوليكية الفاشستية الميكيافلية.

ومنذ عودة غراسياني إلى بنغازي، بدأ نائب الوالي الجديد يضع هذا البرنامج موضع التنفيذ من غير إبطاء معلنًا أنه سوف: (يتبع بكلِّ إخلاص تعاليم الدولة الفاشستية، ويسير على مبادئها؛ لأنه وإن كان قائد من قواد الجيش وأحد الرجال العسكريين إلا أنه يدين بمبادئ فاشستية محضة، ويعلن هذه الحقيقة بكلِّ وضوح وصراحة تامة)[١].

كان الجنرال غراسياني معروفًا بالعجرفة والطيش وبالجبروت الوهمي، وكان أول عمل قام به في الدوائر المدنية بعد وصوله هو استبدال غالب الموظفين الإيطاليين بآخرين ممن يتمتعون بثقته عندما كان يعمل في طرابلس، كما جاء بقائد جديد للكربنير (الضابطية) هو الكولونيل كاستريوتا، وبالجنرال نازي ليكون مساعده الأول في القيادة العسكرية، واستعان بعصابة من المدنيين قد أخذوا ينفذون أهدافه الشريرة وأفكاره الشاذة بكلِّ الوسائل، ومن هذه العصابة الكمندتور موريتي (السكرتير العام) الكمندتور أجيدي متصرف لواء بنغازي، ثم بدأ زيارته للمناطق الخاضعة لنفوذ إيطاليا، وكانت السلطات تجمع لاستقباله جميع الأهالي بما في ذلك النساء والأطفال والعجزة، فيخطب فيهم متوعدًا ومهددًا[٢]، وكان يستفتح خطاباته الطائشة بقوله: «صموا أفواهكم وافتحوا آذانكم» ليلقي الرعب في نفوس المستضعفين الذين استسلموا وخضعوا لإيطاليا، وكان قد ألقى كلمة تهديدية في جموع حشدتها السلطات في موقع (البريقة) استهلها بقوله: «ما أنتم إلا مثل سيجارة موقودة من الجانبين تلتهمها النار من هنا ومن هناك حتى تصبح رمادًا، وهاهو ذا أنا أولع السيجارة من جانبي، ويوقدها عمر المختار من جانبه حتى يؤتي عليكم»[٣].

وقال في خطاب ألقاه من شرفة قصره في بنغازي: «تحت يدي وتصرفي باخرة تقف في

(١) انظر: عمر المختار، محمود شلبي، ص١٢٦.
(٢) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٢٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص١٢٤.

الميناء وبأقل إشارة مني تنقل كل من أرى من الصواب نقله إلى إيطاليا، وهذا أخف ما نعاقب به»[١].

وفي خطاب تهديدي آخر قال: «عندي لكم ثلاث حالات: الباخرة الموجودة في الميناء، وأربعة أمتار فوق الأرض -مشيرًا إلى أعمدة المشنقة- ورصاص بنادق جندنا - مشيرًا إلى القتل رميًا بالرصاص»[٢].

لقد قام غراسياني وحكومته بحشد المجهودات الضخمة للقضاء على عمر المختار بالصورة التي كلفت الخزانة الإيطالية في سنة واحدة ما لا يقل عن النفقات التي تتكبدها دولة عظيمة لمجابهة دولة تماثلها في عدة سنوات.

فقد قال السنيور فيتيتي وكيل وزارة الخارجية في حديث له مع سماحة مفتي فلسطين الأكبر الأستاذ محمد أمين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا لفلسطين، وقد أورد سماحته هذا الحديث في مذكراته التي أخذت تنشرها جريدة أخبار اليوم، قال وكيل وزارة الخارجية المذكور: «حقًا، إن ما وقع في ليبيا سبَّب لنا متاعب كثيرة، فعندما كانت السياسة الإيطالية تتأثر في الماضي كثيرًا بالسياسة البريطانية قبل عهد الفاشيست خدعتنا إنكلترا وفرنسا، فاستولت على أغنى وأغلى أقطار إفريقيا، وأغرتنا باقتحام ليبيا عام ١٩١١م، فلم نجد فيها رغم الجهود المضنية والخسائر الفادحة في الأنفس والأموال غير الرصاص والرمال، ولم نجن من ذلك إلا بغض العرب ومقت المسلمين لنا»[٣].

رابعًا: المحكمة الطائرة

لم يمض على وصول غراسياني سوى أيام قلائل حتى أنشأ ما عرف في تاريخ الاستعمار الإيطالي الأسود باسم «المحكمة الطائرة» (أبريل ١٩٣٠م)، كانت تلك المحكمة تقطع البلاد على متون الطيارات، وتحكم على الأهالي بالموت ومصادرة الأملاك لأقل شبهة، وتمنحها للمرتزقة الفاشيست، وكانت تلك المحاكم تنعقد بصورة سريعة

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٢٥.

(٣) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٢٦.

وتصدر أحكامها وتنفذ في دقائق وبحضور المحكمة نفسها لتتأكد من التنفيذ قبل أن تغادر الموقع الذي انعقدت فيه لتنعقد في نفس اليوم بموقع آخر، وفتحت أبواب السجون في كلِّ مدينة وقرية ببرقة، وانتزعت الأموال من المسلمين بدون مبرر، ونصبت أعواد المشانق في كلٍّ من العقيلة، وأجدابية، وبنغازي، وسلوق، والمرج، وشحات، ودرنة، وعين الغزالة، وطبرق، ولأتفه شبهة وأقل فرية يصدر حكم الإعدام وينفذ في حينه شنقًا أو رميًا بالرصاص، وكان مما قتل شنقًا أو رميًا بالرصاص في مدة لا تزيد عن شهرين من استلام غراسياني مقاليد الحكم في برقة؛ المشايخ: بحيح الصبحي، وعلى بويس العربي، وابنه عبد ربه بوموصاخ، وخير الله هليل، ومحمد يونس بوقادم، وعلي حميد أبوضفيرة، واثنان من قبيلة سعيد أشقاء حمد الرقيق، وهؤلاء من منطقة أجدابية، ثم محمد الحداد وابنه بنغازي، وعبد السلام محبوب من الإخوان السنوسيين، وسليمان سعيد العرفي (المرج)، وخمسة عشر شخص بينهم الشيخ سعيد الرفادي (عين الغزالة وغيرهم كثير)[1].

خامسًا: عزل المجاهدين ووضع القبائل في معسكرات الاعتقال الجماعية

بدأ غراسياني ينفِّذ سياسة عزل الأهالي الخاضعين عن المجاهدين، وشرع في جمع الإخوان السنوسيين من شيوخ الزوايا وأئمة المساجد ومعلمي القرآن بها مع ذويهم جميعًا، وكل من تربطه بأحد هؤلاء أية صلة، وكذلك بمشايخ وأعيان القبائل، وبكل من يربطه أي نوع من أنواع الصلات بأحد المجاهدين أو المهاجرين، جيء بهذه المجموعات يساقون إلى مراكز التعذيب ثم إلى السجون، ولم يشفع في أحدهم سن الشيخوخة الطاعنة، أو الطفولة البريئة، أو المرض المقعد، أو الضرر الملازم، وأنشئت معتقلات جديدة في بنينه والرجمة، وبرج توبليك، وخصص غراسياني مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة البيضاء، والمقرون وسلوق في أواسط برقة الحمراء؛ لتكون مواقع الاعتقال والنفي والتشريد والتعذيب لجميع سكان منطقتي الجبل الأخضر والبطنان بصورة جماعية، وبغير سكان هاتين المنطقتين ممن تحوم حولهم أية شبهة، أو تلفق ضدهم أقل فرية، وأمر بنقل قبائل هاتين المنطقتين المذكورتين إلى هذه المعتقلات الخاصة بهم

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٢٦، ١٢٧.

ثمانين ألفًا، وما هي في الحقيقة إلا مقابر يدفن فيها الأحياء وأدًا، فخصص معتقل العقيلة والبريقة لقبائل العبيدات، والمنفا، والقطعان، والشواعر، والمسامير، ولبعض عائلات الإخوان السنوسيين بما في ذلك سكان الجغبوب، ولبعض من سكان مدينتي بنغازي ودرنة، وأسند حكم المعتقلين لممثلي الظلم والجبروت والوحشية الفظيعة.. لكلٍّ من كسوني، وباريلا (غير باريلا متصرف المرج).

وخصص معتقلا المقرون وسلوق لكلٍّ من قبائل البراعصة والدرسة والعرفا والعبيد وأتباعهم وشطر كبير من عائلات الإخوان السنوسيين الذين سبق أن أبعد غراسياني رجالاتهم إلى إيطاليا أو فرقهم بين السجون المختلفة، جيء بهذه القبائل التي بلغ تعدادها الثمانين ألف نسمة يساقون زمرًا إلى المعتقلات المذكورة، فمنهم من جاءها عن طريق البحر؛ حيث حشروا بالمراكب حشرًا، ومنهم من جاءها عن طريق البر بعد أن أتت إيطاليا على جميع المنقولات حرقًا بالنار، كما أحرقت الزراعة ومحصولاتها، وأهلكت الحيوانات فيما عدا ما استعملته للنقل، وأحيط القسم المساق عن طريق البر بجنود من الصوماليين والإريتريين ليتعقبوا كل من يتخلف عن المساقين إلى حتفهم، ويرمى المتخلف بالرصاص، وكان الرامي غير مسئول عن عمله هذا، وأصبحت جميع مناطق الجبل والبطنان هلاكًا تلعب فيه الرياح[1].

لقد أراد غراسياني الانتقام من القبائل التي أثبتت الأيام أنها نعم العون للمجاهدين بعد الله، فجمع النواجع المنتشرة في منطقة الجبل الأخضر في أماكن أحاطها بالأسلاك، وحدث في تلك المعتقلات الجماعية ما لم يصدقه بشر ولا خطر على بال إنسان يعقل، لقد اشتدت المحنة واعتدى الإيطاليون على الأبدان والأموال والأعراض في تلك المعتقلات.

ولقد قام الباحث يوسف سالم البرغثي بدراسة متميزة سمَّاها «المعتقلات والأضرار الناجمة عن الغزو الإيطالي»، وذكر فيها تفصيلًا محزنًا، ووثائق تاريخية من أفواه من عاش تلك المرحلة العصيبة التي مر بها شعبنا المظلوم[2].

---

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، ص١١٣ - ١٤٩.
(٢) المصدر السابق نفسه.

لقد وصف مراسل جريدة ألمانية زار معسكرات الموت التي جمع فيها غراسياني أكثر من ٨٠ ألف نسمة، فقال: «إنَّ الانتقادات التي يوجهها الآن الفرنسيين والإنكليز إلى خطة الفاشيست في برقة، موجهة في الدرجة الأولى إلى التدابير التي اتخذها الجنرال غراسياني لإجلاء ٨٠ ألف بدوي عن أراضيهم، دون أن يرعوا حالة هؤلاء البدو الروحية، أو يلاحظوا تأثير مثل هذا القيد والحصار فيهم، ولا يجوز لأحد أن يخرج من نطاق الحصار إلا في النهار، بشرط أن يرجع إلى مكانه قبل أن يخيم الظلام، وكل واحد من رؤساء القبائل مسئول عن أتباعه فردًا فردًا.

يجب أن نقول: إنَّ الحالة السيئة للغاية تفوق كل تصور، فإن معدل الأموات من الأطفال يبلغ ٩٠٪، وأمراض العيون التي ينتهي أكثرها بالعمى كثيرة جدًّا ومنتشرة، ويكاد لا ينجو أحد من الأمراض، أما غذاء هؤلاء المساكين؛ فالأحسن ألا نتكلم عنه بالمرة، ومن الطبيعي أن نرى هؤلاء يتألمون أشد الألم، وفي الدرجة الأولى من هذه الأسلاك الشائكة، رمز الأسر، ورغم تلاصق الخيام، وشدة تقاربها ببعضها، فإن حصرها ضمن أسلاك شائكة يجب أن نعتبره من المتناقضات الغريبة التي لا يتصورها العقل»[١].

إنَّ ما ارتكب في العقيلة والبريقة وغيرها من المعتقلات من جرائم جعل المناضلين في العالم يصرخون ويندَدون بالاستعمار الفاشيستي في ليبيا، فقال عبد الرحمن عزام يصف حالة المعتقلين ويلفت الأنظار إليهم: «يبحثون عن أخبار الأندلس، وكيف أجرى الأسبانيون بالمسلمين هناك، وما لهم والأندلس والأمور جرت في القرون الوسطى، فأمام أعينهم طرابلس الغرب؛ فليذهبوا ويشاهدوا بأعينهم في هذه الأيام فضائح لا تقل عما جرى بالأندلس»[٢].

وعبَّر غراسياني نفسه عن المأساة التي كانت أكبر من قلبه القاسي؛ فقال: «لقد نتج عن هذا كله أن أكثر الناس هاجرت ونزحت إلى مصر وتونس والسودان تاركة وراءها أهلها وذويها... فإني حاسبت نفسي وضميري.. الأمر الذي جعلني لم أنم هادئًا أكثر الليالي»[٣].

---

(١) انظر: عمر المختار، شلبي، ص١٨٨.

(٢) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٣٤٦.

(٣) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، ص١٤٥.

ويقول مبررًا جرائمه البشعة: «لا نستطيع إنشاء حاضر جديد إذا لم نقض على الماضي القديم»[١].

سادسًا: عمر المختار يغيِّر استراتيجية الحرب

كانت معسكرات المجاهدين قريبة من نواجع الأهالي حتى يسهل على المختار وصحبه أخذ العشور والحصول على الذخائر والأسلحة والمؤن، ولكن بعد حشر القبائل في المعتقلات الجماعية تغيَّرت خطة عمر المختار، وطوَّر أساليبه القتالية لما يتماشى مع المرحلة، واعتمد على عنصر المباغتة، وركن إلى مفاجأة القوات الإيطالية بعد كشفها والاستطلاع عليها في أماكن متفرقة[٢].

يقول غراسياني: «بالرغم من إبعاد النواجع والسكان الخاضعين لحكمنا يستمر عمر المختار في المقاومة بشدة ويلاحق قواتنا في كلِّ مكان»[٣].

وقال عنه أيضًا: «عمر المختار قبل كل شيء لن يسلم أبدًا؛ لأن طريقته في القتال ليست كالقادة الآخرين، فهو بطل في إفساد الخطط وسرعة التنقل بحيث لا يمكن تحديد موقعه لتسديد الضربات له ولجنوده، أما غيره من الرؤساء؛ فإنهم أسرع من البرق عند الخطر، فيهربون إلى القطر المصري تاركين جنودهم على كفة القدر معرضين لخطر الفناء.. عمر المختار عكس هذا؛ فهو يكافح إلى أبعد حد لدرجة العجز، ثم يغيِّر خطته، ويسعى دائمًا للحصول على أي تقدُّم مهما كان ضئيلًا بحيث يتمكن من رفع الروح العسكرية ماديًّا ومعنويًّا حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وهنا يسلم أمره لله كمسلم مخلص لدينه»[٤].

كان عمر المختار قطب تدور عليه رحى الأعمال، والتف المجاهدون حوله التفاف السوار بالمعصم، واستمر العمل بقيادته ومساعدة معاونيه كيوسف بورحيل، والفضيل بوعمر، وعصمان الشامي، وعوض العبيدي، وعيسى الوكواك العرفي، وعبد الله بوسلوم، وعبد الحميد العبار.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٤٥.

(٢) انظر: عمر المختار لمحمود شلبي، ص١٢٧، ١٢٨.

(٣) انظر: برقة الهادئة، ص٢٢٧.

(٤) انظر: برقة الهادئة، ص١٢٩.

وكانت مواقف عمر المختار تدل على شخصيته القيادية البارعة في أحلك الظروف وأثناء المحن؛ ففي أحد الأيام وعقب انتقام الإيطاليين من أحد المنتجعات التي كانت تقدم مساعدات للمجاهدين تقدم بعض زعماء القبائل باحتجاج إلى عمر المختار وطلبوا منه إما أن يسلم إلى الإيطاليين أو أن يرحل عن مواطنهم أو أنهم سوف يحاربونه لكي يتجنبوا انتقام الإيطاليين، وعلى إثر تسلم هذا الإنذار دعا عمر المختار إلى عقد اجتماع في منطقة قصر المجاهير، وقد ساد هذا اللقاء حالة من التوتر وشدة في النقاش في محاولة لتجنب حرب أهلية بين المجاهدين والليبيين الواقعين في المناطق الخاضعة للاحتلال، فرأى بعض المجاهدين تجنبًا لهذا الوضع الحرج أن يهاجروا إلى مصر لكي لا يتعرض الأهالي إلى الانتقام، وبعد حوار طويل أظهر المختار مصحفه وأقسم عليه بأنه لن يتوقف عن مجاهدة الإيطاليين، وأنه لن يترك الجبل الأخضر حتى يتحقق النصر أو الشهادة، وفي نفس الوقت أعلن للمجاهدين أنه من يريد الهجرة إلى مصر؛ فله مطلق الحرية في السفر أو التسليم للإيطاليين، وعندما رأى المجاهدون موقف قائدهم عدلوا عن رأيهم وأطاعوه، وانفض الاجتماع على وحدة صف المجاهدين[١].

استمر غراسياني في تدابيره العسكرية، فلم يأت يوم ١٤ يونيو حتى كان الطليان قد استولوا على منطقة الفايدية بأجمعها واحتلوها ونزعوا من الأهالي الخاضعين لهم ٣١٧٥ بندقية، و٠٠٠,٦٠ خرطوش.

نقل عمر المختار دائرة عملياته إلى الناحية الشرقية في الدفنا نظرًا لقربها من الحدود المصرية، وذلك حتى يتمكن من إرسال المواشي التي يأتيه بها الأهالي إلى الأسواق المصرية في نظير أخذ حاجته من هذه الأسواق، مما جعل غراسياني يقرِّر إقامة الأسلاك الشائكة على طول الحدود الشرقية. وقال: «إن اطمأن على خطوط تموينه البعيدة أصدر أمره إلى قواته الموزعة في كلِّ مكان ألا تزعج بعد الآن الليبيين الخاضعين لسلطاتنا حتى لا يكونوا سلاحًا آخر ضده، وألا يغضبوا من حركته، وهكذا يصبح أمام ضميره بأنه مسلم حقيقي ونظيف.

---

(١) انظر: عمر المختار.. نشأته وجهاده، ص٧١.

إنَّ مد الأسلاك الشائكة المكهربة على حدود مصر كادت أن تنتهي وستضيق الخناق عليه تدريجيًا حتى يقع في الفخ الذي سننصبه له، إنَّ مصر هي المأوى الآمين لعدد كبير من الآلاف المؤلفة من البرقاويين الذين ينتمون إلى القبائل العامة، والتي لها إمكانياتها البشرية والمادية، وكذلك لها التأثير الكبير على كثير من النفوس التي يسهل تجنيدها وتوجيهها نحو القتال مقتنعين بأنهم يدافعون عن الدين الإسلامي وعن كيانهم معتبرين أننا مغتصبين ومعتدين على حقوقهم.. هؤلاء الخارجين عن القانون ومن بينهم أعداؤنا يكونون المخازن الثانية لتمويل الثورة بالأسلحة والمؤن والرجال لكل الأدوار رغم كل الاحتياطات التي اتخذتها سلطاتنا الحاكمة، زد على ذلك الأموال التي تجمع من لجان التبرعات من الأقطار العربية لمساعدة الثوار القائمين بالحرب المقدسة فوق الجبل الأخضر في برقة، وحتى إن اتخذنا كل الاحتياطات ضد الخاضعين لسلطاتنا وإبعادهم؛ فالثوار لا يزالون أقوياء يهاجموننا في كلِّ مكان»[1].

عزم غراسياني على مد الأسلاك الشائكة في الحدود الليبية المصرية المصطنعة من قبل الاستعمار ما يزيد على ٣٠٠ كم من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب، وقد كلف الدولة الإيطالية عشرين مليونًا فرنكًا إيطاليًا، وقد حقق لهم ذلك العمل أمور عدة ذكرها غراسياني في كتابه منها:

١- قضى على الثوار.

٢- قضى على التهريب، وأصبح دخل الدولة الإيطالية في ازدياد من ناحية الضرائب الجمركية.

٣- قضى على حركة الإمدادات التي كانت تأتي للثوار المجاهدين من مصر عن طريق المهاجرين[2].

سابعًا: استشهاد الفضيل بوعمر

استمرت المعارك بين الإيطاليين والمجاهدين، ومن أشهر تلك المعارك (كرسة) التي

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٢٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٣٢، ٢٣٣.

وقعت في يوم ٢٠ ديسمبر، وقد استشهد في هذه المعركة الساعد الأيمن لعمر المختار الشيخ الجليل والمجاهد الفذ الفضيل بوعمر الذي شارك في مسيرة الجهاد منذ دخول الغزو الإيطالي في ١٩١١م وشهد له بالشجاعة والإخلاص في جهاده وقد ذكر عمر المختار تفاصيل هذه المعركة في رسالة له جاء فيها أن العدو هاجم المعسكر، وكان رئيسه السيد الفضيل بوعمر، وقد استشهد في هذه المعركة إلى جانب الفضيل أربعون شهيدًا، وقد وجدنا في ميدان القتال ما يزيد عن ٥٠٠ من العدو وبينهم مأجور وثلاثة ضباط، وشدَّد الطليان عملياتهم العسكرية في منطقة الجبل الأخضر بعد هذه الواقعة، واستمرت جموعهم تناوش المجاهدين مدة أسبوعين، ولكن دون الوصول إلى نتيجة.

وفي أكتوبر ١٩٣٠م: تمكن الطليان من الاشتباك مع المجاهدين في معركة كبيرة عثر الطليان عقب انتهائها على (نظارات) السيد المختار، كما عثروا على جواده المعروف مجندلًا في ميدان المعركة؛ فثبت لهم أن المختار ما زال على قيد الحياة، وأصدر غراسياني منشورًا ضمنه هذا الحادث حاول فيه أن يقضي على (أسطورة المختار الذي لا يقهر أبدًا)، وقال متوعدًا: «لقد أخذنا اليوم نظارات المختار، وغدًا نأتي برأسه»[1].

ومع شدة قبضة الاستعمار الإيطالي على المدن إلا أن ذلك لم يمنع الأهالي من القيام بواجبهم المقدس، واستطاعت المخابرات الإيطالية أن تقبض على عدد من الليبيين الذين يزودون حركة الجهاد بالمؤن والمعلومات وتمَّ إعدامهم.

وقد ذكر غراسياني بعض الأشخاص في كتابه فقال: «وهنا أعرض بعض الأحوال الهامة لبعض الأشخاص الليبيين الذين نفذت فيهم المحكمة الخاصة حكم الإعدام في ١٤ يونيو ١٩٣٠م عقدت المحكمة الخاصة في شحات لمحاكمة المواطن حمد بوعبد ربه الدرسي في الميدان العام، باعتباره خائنًا للدولة الإيطالية، لأنه كان شيخًا لبيت من بيوت قبيلته الدرسة، وكان محترمًا من سلطاتنا، ولكن اتضح لدى قسم المخابرات أنه يتعاون مع الثوار في إمدادهم بالمؤن والسلاح، وكانت خياماته تعتبر شبه استراحة لجنود الثوار (المجاهدين) وعدد هذه الخيام يزيد عن عشرين خيمة بمنطقة (قصر بن قدين) المكان

(١) انظر: حياة عمر المختار، ص(١٣٠-١٣٣).

الذي يتزود منه الثوار بالمؤن والسلاح، وقد حكم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص في الميدان بشحات وأمام الجماهير، وبعد أسبوع من هذا الحادث حصلت حركة انتقامية من الثوار (المجاهدين). هجموا على نفس الميدان، وفي وضح النهار قتل فيه عدد كبير من جنودنا... وكذلك تاجر من تجار المنطقة.

وفي شهر سبتمبر ١٩٣٠م: اكتشفت قوة الأمن بمنطقة البركة ببنغازي أن المواطن محمد الحداد أحد أعيان بنغازي ومن تجارها يتعاون مع الثوار وعن طريقه تتم حركة الإمدادات من المؤن والأسلحة وكان يستضيف في بيته الثوار ويمدهم بما يلزمهم وفي الوقت والحين حضرت المحكمة الخاصة وحكمت على الأب والابن بالإعدام شنقًا أمام الجماهير التي أرادت السلطات الإيطالية إحضارهم خصيصًا لمشاهدة تنفيذ الحكم.

وهذا مثال آخر سليمان سيد شيخ قبيلة الطرش، كان عضوًا في مجلس النواب، حاملًا لوسام النجمة الإيطالية للمستعمرات برتبة ضابط، وكان يرتدي برنوس الشرف الخاص بالنواب الليبيين كنا نعتمد على آرائه ولم نفكر في يوم من الأيام أن يكون ضدنا حكمت عليه المحكمة بالإعدام، لأنه كان يستغل نفوذه ويتعاون مع الثوار...ومن هذا النوع الكثير من المشاهد التي لا يمكن حصرها وقد نفذ مع مجيء المحكمة الطائرة ٢٥٠ حكمًا بالإعدام، ونفذ فيهم الحكم في مدة وجيزة ورغم ذلك لازال الشعب الليبي يتعاون مع الثوار إلى درجة الضياع التام(١).

إنَّ هذه الحقائق والمواقف التاريخية تشير إلى فاعلية أهل المدن في جمع المعلومات والأموال والمؤن والأسلحة، وتهريبها إلى قادة حركة الجهاد المبارك، وحرصهم على استمرارية جذوة الجهاد.

لقد وجد الإيطاليون أنفسهم في حرب مع شعب دفع بكافة طاقاته نحو ساحات الوغى والفداء، وشارك معظم أبنائه بكافة ما يملكون في حركة الجهاد المقدس.

ثامنًا: احتلال الكفرة

بعد أن استطاعت القوات الإيطالية أن تعتقل قبائل برقة في معسكرات واسعة،

---

(١) انظر: برقة الهادئة، ص١٥٣، ١٥٤.

وأخذ غراسياني في مد الأسلاك الشائكة على طول الطريق على البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب ليفصل برقة عن مصر، وكان قد شرع في جمع قواته الضخمة من مختلف وحدات الجيش الإيطالي والجيوش الملونة من المرتزقة ومن المعدات الحربية لاحتلال الكفرة.

كانت نقاط الاحتشاد هي العقيلة، ومرادة، وأجدابية، وجالو، وحشدت إيطاليا عددًا كبيرًا من الإبل استعدادًا لنقل المؤن إلى جانب سيارات النقل الكثيرة، هذا ما كان عن استعداد القيادة الإيطالية ببرقة، أما عن القيادة الإيطالية بطرابلس فقد جهزت هي الأخرى حملة مماثلة بقيادة الكونيل قالينا وكانت نقطة ارتكاز هذه الحملة واحة زلة وكانت القيادة العامة للحملة الموحدة تتمثل في شخص الجنرال رونكيتي تحت إشراف الجنرال غراسياني مباشرة، وتحركت الجيوش الإيطالية من طرابلس وبرقة في وقت واحد وبنظام موحد تسلك طريق الصحراء إلى الكفرة، وتجمعت يوم ٢٩ شعبان سنة ١٣٤٩هـ بموقع الهواري، وهناك اشتبكت قواتهم مع المجاهدين في أولى المعارك، وكانت معركة غير متكافئة، وقد اشترك قسم من الطائرات الإيطالية مكون من عشرين طائرة، واستمرت المعركة ثلاث ساعات قتل أثناؤها العدد الكثير من الإيطاليين ومن المدافعين الذين ما كانوا يفكرون في صد العدوان طويلًا، ولكنهم يحاولون إيقافه بعض الوقت ريثما يتمكن من يستطيع الفرار ليأخذ طريقه إلى السودان أو مصر[1]، لقد قاتل المجاهدون جميعًا بشجاعة وبسالة نادرة، فلم يكفوا عن القتال، واستشهد العشرات ووقع في أسر الطليان ثلاثة عشر فقط، وغنم الطليان مائة بندقية، واحتلوا الكفرة، وهتكوا الأعراض، وفعلوا ما لم يفعله إنسان.

لقد كتب غراسياني عن اهتمامه باحتلال الكفرة، وعن الاستعدادات التي اتخذتها الحكومة الإيطالية أكثر من خمس وأربعين صفحة، لقد اعترف غراسياني بقوة وشجاعة المجاهدين الذين تعرضوا لقتال الإيطاليين عبر الصحراء الكبرى. قال غراسياني: «لقد حملتنا خسائر فادحة، وكنا حريصين على تحقيق النصر بأي ثمن لكون قوات المجاهدين

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٣٠،١٢٩.

غير متكافئة، رغم هذا كله كانوا أشداء أقوياء صامدين، صابرين لا يتقهقرون أبدًا حتى ولو أدى ذلك لفنائهم جميعًا، مؤمنين بأنهم أصحاب حق وشجاعة»[١].

لقد اعترف العدو بهم كان زادهم التمر والشعير ومع ذلك دوَّخوا إيطاليا، وكان من بين القادة الذين أثخنوا في الأعداء عبد الحميد بومطاري الذي تزعم قيادة الزاوية والمغاربة في تلك المرحلة في جهادها ضد إيطاليا وصالح الأطيوش وسيف النصر الذي قال فيهم غراسياني: «لقد وصل سيف النصر وصالح الأطيوش إلى المنطقة وبصحبتهم الذين هاجروا من القطر الطرابلسي، فأصبح الموضوع دقيقًا وبالأخص صالح الأطيوش؛ فهو مكابر وشديد المراس»[٢].

إنَّ المجاهد صالح الأطيوش من المجاهدين العظام الذين ساهموا في الذود عن حياض المسلمين، لقد شهد له عدوه غراسياني بشدة مراسه، فله منا الدعاء بالمغفرة والرحمة والرضوان وله ولجميع إخوانه الذين سطَّروا لنا صفحات من البطولة والرجولة للذود عن ديننا العظيم.

إنَّ عائلة آل الأطيوش تعرَّضت لبلاء عظيم، ولقد أعطى السنوسي الأطيوش صورة حية عن ذلك البلاء الذي كابده الفارون من جحيم الكفرة في ذلك الوقت.

إنَّ أسرة عائلة الأطيوش أسرة مشيخة أصيلة في قبيلة المغاربة، تعد نموذجًا لما قاسته مختلف العائلات الليبية البارزة عبر فترة الكفاح الطويل ضد الإيطاليين، فمن المعلوم أن الكيلاني الأطيوش الذي عيَّنه الوالي التركي في منصب القائمقام الكفرة سنة ١٩١٠م، توفي في العام التالي مباشرة وهو في طريقه إلى جالو للالتحاق بقوات المقاومة التركية ضد الغزو الإيطالي، وأخوه سعيد قضى نحبه خلف أسوار معتقل إيطالي في العقيلة ومن بني أخيه واحد شنقه الطليان في سرت، وعبد الله استشهد في معركة النوفلية، كما قتل في البريقة اثنان آخران هما علي وأحمد عبد القادر الذي قتل في سرت سنة ١٩١٨م، والآخر استشهد في معركة سرت بالقرب من أجدابية، وكذلك فقدت هذه العائلة ما لا يقل عن

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٩٨.

أربعة آخرين ماتوا في أثناء محاولة النجاة بأرواحهم من الكفرة.

فعندما هاجم الإيطاليون الكفرة رحل صالح باشا الأطيوش بأهل بيته، وكان من بينهم السنوسي ابن أخيه، وبضعة أشخاص آخرين، في قافلة من الإبل اتجهوا بها أولًا صوب العوينات على حدود السودان، فبلغوها بعد ستة أيام، وهناك ملئوا قربهم بالماء وانقسموا إلى فريقين، توجه أحدهما إلى الشمال نحو وادي النيل، بينما عمد الفريق الآخر إلى مرقة وهي واحة صغير غير مأهولة تقع في ناحية الجنوب الشرقي بالسودان، ويبلغ طول هاتين المسافتين ٥٠٠ميل و٣٠٠ ميل على التوالي، أي: مسيرة ٢٥ يومًا و١٥ يومًا بمعدل سير الإبل العادي، ولم يكن ثمة أي أثر يمكن للمسافر اقتفاؤه ولا مورد ماء في الطريق، ولا أحد يستطيع أن يتصوَّر مدى خطورة رحلة كهذه ما لم يكن قد جرب اجتياز تلك الصحارى على ظهر جمل.

وقد حكى السنوسي الأطيوش قصة تلك الرحلة فقال: «بعد مسيرة عدة أيام أخفقنا في الوصول إلى برقة، وعرفنا أننا تائهون في الصحراء، فرجعنا أدراجنا نقصد العوينات، لما كنا استنفذنا مؤنتنا من المياه، أصبحنا مضطرين إلى نحر ناقة أو جمل كل يوم لشرب الماء المخزون في بطون الإبل.

وكان كل منا يحمل في مخلاته بعض لحم الذبيحة ويأكل أثناء السير ومع أن المسافة التي قطعناها منذ خروجنا من العوينات كانت قد استغرقت منا ثمانية أيام كاملة، فقد بلغت بنا شدة المحنة أننا في طريق العودة قطعنا نفس المسافة خلال أربعة أيام فقط، راكبين أو ماشين ليل ونهار وفي العوينات ملأنا قرب الماء من جديد.

وبعد استراحة قصيرة واصلنا السفر عامدين نهر النيل رأسًا، باقتفاء آثار الفريق الآخر من جماعتنا، وعثرنا في الطرق على جثث البعض، ومن بينهم أمي وأختي واثنين من إخوتي قصفتهم طائرات الطليان، أو ماتوا عطشًا، وكنا نغذُّ السير ليل نهار حتى وصلنا آبار كريم بعد تسعة أيام، ونحن أقرب إلى الموت منا إلى الحياة، وهناك أسعفنا الحظ بلقاء بعثة استكشافية كان قد نظمها الأمير عمر طوسون بقيادة ضابط بريطاني، فحملتنا معها إلى واحة الخارجة ثم إلى الداخلة.

ومنها انتقلنا إلى المنيا حيث استقر بنا المقام مع ناس من قبيلة الجوازي التي تربطنا بها صلة القرابة، ومكثنا هناك حتى عام ١٩٤٠م، وعندها التحقنا بالقوات الليبية تلبيةً لنداء الأمير»[١].

إنَّ هذه القصة الحزينة تعطينا صورة واضحة عن ما كابده الليبيون الذين استطاعوا الهروب من هجمة غراسياني الوحشية على الكفرة، وتلك الغارة الهمجية، ولقد تأثر العالم الإسلامي من الأخبار التي سمعوها من العائلات الليبية التي كتب الله لها النجاة، وقد قام الأمير شكيب أرسلان بدور مشكور في توضيح تلك الأعمال، وكتب مقالات صادقة أصبحت وثائق مهمة للمؤرخ لتلك المحنة العظيمة التي مرَّ بها الشعب الليبي المسلم فقد قال: «... إنهم لما احتلوا واحة الكفرة في ١٣ يناير من سنة ١٩٣١م استباحوا قراها ثلاثة أيام فقتلوا ما صادفوه من الأهالي، وكان من جملة القتلى بعض الشيوخ الأجلاء، مثل: محمد عمر الفضيل، والسيد حميد الفضيل، والشيخ فضيل الديفار، وغيرهم ممن قتلوه صبرًا، غير داخل في ذلك من قتلوا من المعركة التي جرت بين الأهالي وجيش الحملة الطليانية وهم ٢٠٠ شخص.

ثم إن الطليان انتشروا في القرى والبساتين ونهبوا كل ما وقع في أيديهم، ولم يرحموا الشيوخ ولا الأطفال ولا النساء، وصادفوا الشيخ مختار الغدامسي وهو شيخ فانٍ بلغ ثلاثًا وتسعين سنة، ومن جلة علماء السنوسية فحملوه مقيدًا بالحبال على جمل ونفوه من الكفرة فمات في الطريق.

ثم اغتصبوا النساء في أعراضهن، وقتلوا منهن كثيرًا ممن دافعن إلى الآخر عن أعراضهن، وكان نحو من ٢٠٠ امرأة من نساء الأشراف قد فررن إلى الصحراء قبل وصول الجيش الإيطالي، فأرسلوا قوة في إثرهن حتى قبضوا عليهن وسحبوهن إلى الكفرة حين خلا بهن ضباط الجيش الطلياني واغتصبوهن، وهكذا نزلوا المعرات بسبعين أسرة شريفة من أشراف الكفرة الذين كانت الشمس تقريبًا لا ترى وجههن من الصون والعفاف.

(١) انظر: الملك إدريس عاهل ليبيا، ص٥٨، ٥٩.

وقد أشارت الصحف الطليانية إلى هذه الحادثة وصرَّحت في باب الافتخار قائلةً: «إنَّ الجيش قبض على ٢٠٠ امرأة من نساء الزعماء»، وقرأنا ذلك بأعيننا، ولحظنا أن مقصود البلاغ العسكري الإيطالي التبجُّح بكون حلائل زعماء الكفرة صرن إلى الضباط إلا إننا انتظرنا جلاء الأخبار من الجهة الثانية حتى نعلم ماذا جرى بعد التثبت، فمضى شهر حتى وردت الأخبار من المهاجرين الذين دخلوا حدود مصر بأن هؤلاء السيدات المقصورات الناشئات في أكرم بيوت الطهارة والصون قد قبضوا عليهن في الصحراء وصرن إلى أولئك الفجرة الذين لا يعرفون لصيانة العرض معنى ولا يقيمون للشرف وزنا.

وعلمنا أن بعض شيوخ الكفرة الذين احتجوا على هتك أعراض السيدات المذكورات قد أمر القائد بقتلهم ثم لما هج هائج العالم الإسلامي من جراء هذا الخبر وأشباهه أذاعت الحكومة الإيطالية تمويهًا ظاهرًا زعمت فيه أن الجيش تأثر للنسوة المائتين المذكورات شفقة عليهن ولأجل أن يرجعن إلى بيوتهن آمنات وغير ذلك من الأقاويل التي قصدت إيطاليا بها تخدير أعصاب المسلمين الذين بلغهم ما كان جرى بالكفرة من هذه الفظائع من هتك أعراض مخدرات المسلمين ومن استباحة الزاوية السنوسية المسماة (التاج) وإراقة الخمور فيها، ودوس المصاحف الشريفة بالأقدام هذا منظمًا إلى ما كان بلغهم من قبل من إجلاء ٨٠ ألفًا من عرب الجبل الأخضر عن أوطانهم وإماتتهم بالجوع والعطش، وأخذ أطفالهم قهرًا إلى إيطاليا لأجل تنصيرهم إلى ما كان بلغهم من فظائع كثيرة مثل حمل الشيخ سعد شيخ قبيلة (الفوائد) وخمسة عشر شيخًا من رفاقه بالطائرات وقذفهم بهم من الجو على مشهد من أهلهم حتى إذا وصل أحدهم إلى الأرض وتقطع إربًا صفق الطليان طربًا ونادوا العرب قائلين: (ليأت محمد هذا نبيكم البدوي الذي أمركم بالجهاد وينقذكم من أيدينا)، هذه حادثة وغيرها من الأمور في هذا الشأن كثيرة جرحت قلوب المسلمين، فجرت مظاهرات بالشام، وحلب، وطرابلس الشام، وبيروت، وفلسطين، وانعقدت اجتماعات في كل مكان للاحتجاج على أعمال إيطاليا، وأبرق المسلمون بالاحتجاجات الشديدة إلى جمعية الأمم بجنيف وإلى نفس موسوليني

بالعبارات القاسية، وقامت قيامة الجرائد العربية وحملت على توحش الفاشيست من كلِّ جانب، وامتلأت جرائد مصر بالاحتجاج والطعن في إيطاليا إلى أن عطَّلتها الحكومة المصرية إجابةً لطلب الحكومة الإيطالية، ووصل الصريخ إلى الهند والجاوى، وأضج المسلمون لهذه الأخبار.

وانعقد في الجاوى اجتماع كبير حضره ألوف مؤلفة من المسلمين وخطبوا خطبًا شديدة ودعوا إلى مقاطعة البضائع الإيطالية، وتدخلت الحكومة الهندية في الأمر وانتصرت لإيطاليا بمقتضى قاعدة التكامل الأوروبي بوجه المسلمين، وقاعدة التكافل الاستعماري بوجه الأمم المقهورة وأشاع قناصل إيطاليا أن كل هذه الأخبار عمّا حل بمسلمي طرابلس ملفقة لا أصل لها وبلغت بهم الوقاحة أنهم كانوا يخاطرون الناس مخاطرة على أن يذهبوا إلى طرابلس بأنفسهم ليشهدوا كذب هذه الأقاويل وبلغ بهم البهتان أنهم أشاعوا أيضًا أن إيطاليا اقترحت على جمعية الأمم أن ترسل إلى طرابلس لجنة من عندهم للتحقيق عما ينسب إلى رجالها من الأعمال الشنيعة التي هم أبرياء منها، وكل هذا اختلاق محض قصدت به إيطاليا التمويه وتخدير الأعصاب وصرف المسلمين عن مقاطعة بضائعها، وقد سكن كثير من المسلمين إلى هذه التكذيبات وهدأ بالهم والحق خلاف ذلك، وكل ما شاع من الأخبار عن أعمال الطليان لاسيما بعد مجيء دول الفاشيست هو دون الواقع، ولو تأمل المسلمون فيما يأتيه الفاشيست في نفس إيطاليا من الموبقات ومن اغتيال أعدائهم السياسيين، ومن حجر كل حرية ومن منع تأليف كل حزب يخالف حزبهم وأمام هذا الانتقام الرهيب من المسلمين في قتلهم وتغريبهم عن ديارهم، فلا تسأل، فقد أصبحت في حكم المتواتر الذي لا يصح فيه المراء بالاتفاق عشرات الألوف من الأهلين على روايته فقد نزح عن طرابلس وبرقة نحو من مائتي ألف نسمة وقيل من ٣٠٠ ألف نسمة منهم ٢٠ ألف دخلوا تونس والجزائر، ومنهم ٦٠ ألفًا دخلوا مصر، ومنهم من شردوا إلى السودان، ومنهم من تفرَّقوا في الصحارى، وقد أطبقوا بأجمعهم على صحة هذه الأخبار ومشاهدتهم تلك الأفعال بالعيان، وإنه ليستحيل اتفاق الألوف المؤلفة على الكذب هذا فضلًا عن كون هذه المظالم حقيقة راهنة ما كان هذا العدد الكبير من الأهالي يترك وطنه ويهيم على وجهه في البراري أو يلتمس الرزق عاملًا في

أرض غيره بعد أن كان سيدًا في أرضه، ومن أغرب المتناقضات والتناقض من عادة كل كاذب، أنه بينما ممثلو إيطاليا في بلاد الإسلام يذيعون أن من شاء أن يذهب إلى طرابلس بنفسه ليتحقق من كذب تلك الأخبار عن فظائع الطليان فيها فإن أبواب طرابلس مفتوحة لمن شاء الذهاب إلى هناك وبينما قنصلهم في بيروت يشيع ذلك في بيروت، وبينما الحكومة الإيطالية تقول هذا القول لشوكت علي الزعيم المسلم الهندي إذا بقيت إيطاليا مدة طويلة بعد احتلال الكفرة وحوادثها المؤلمة تمنع كل دخول وخروج بين الحدود المصرية والحدود البرقاوية لئلا يقف أهل مصر على الحقائق والأخبار فيزدادوا هياجًا. ولكن الحقائق لا بدَّ أن تظهر ولا يمكن إيطاليا إخفاء كل ما تأتيه من الأعمال الوحشية في طرابلس وليس المسلمون وحدهم هم الذين شاهدوا أعمال الطليان وضجوا منها بل ثمة كثير من الإفرنج شاهدوها وأنكروها[1].

لقد قام الأمير شكيب أرسلان بدور مشكور في الدفاع عن الليبيين وإظهار وحشية الإيطاليين، ولقد كتب في صحف ذلك الزمان مقالات حزينة، بيَّن فيها الأعمال الوحشية التي قام بها الإيطاليون ضد الشعب الليبي المظلوم وهذه وثيقة أخرى تاريخية لمقال كتبه الأمير شكيب في مجلة الدولة العربية، ولقد انتشر هذا المقال شرقًا وغربًا ونص هذا المقال:

تاسعًا: دور الصحافة الإسلامية

التعذيب الإيطالي في طرابلس

تحرير الأمير شكيب أرسلان

كانت الحركة الإسلامية تائهة عن كلِّ ما يحدث في طرابلس من تعذيب وهمجية من البرابرة الإيطاليين الذين ما أتوا إلى هذه الأرض إلا ليؤخروها عن التقدم والمدنية، بعكس ما كانوا يقولون ويكتبون.. نعم، إن الناس علمت بأن الحكومة إيطاليا الفاشيستية نقلت ما يزيد عن ٨٠ ألف عربي من الجبل الأخضر ووضعتهم في الصحراء (سرت) ونزعت منهم أراضيهم بحجة التعمير، وإن المعمرين الإيطاليين هم أحق من أي أحد آخر؛ لأنهم يتقنون هذا العمل أكثر وأحسن من العرب.

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ٦٩-٧٢).

إنَّ العالم علم بأن الجيش الإيطالي احتل الكفرة وواحاتها بعد قتل السكان العزل والثوار الذين دافعوا عن وطنهم إلى النهاية، وإنَّ الصحافة الإيطالية تتبجح وتنشر بأن جيشها أسر مائة امرأة وهن زوجات الشيوخ هناك.

وفي مجلتنا (الدولة العربية) وجَّهنا سؤالنا إلى الإيطاليين الفاشستيين عن معنى هذا التبجح بأسر مائة امرأة.

مع العلم بأن التقاليد والعادات العالمية وبالأخص البيئة العربية التي تنفي اضطهاد المرأة أو النساء خصوصًا أثناء قيام الحرب، ولكن ما كنا نعتقد أن دولة تعتبر نفسها من دول البحر الأبيض المتوسط مهد الحضارة الأوروبية أن تصل إلى هذه الدرجة من الانحراف والخروج عن جادة التمدن والرقي، لم يسبق في تاريخ البشرية بل في تاريخ البربرية أن معاملة الجيش الإيطالي الفاشيستي للنساء هي معاملة وحشية بدرجة تتقزز منها النفوس، فهي معاملة سيئة سواء في طرابلس أو في برقة.

إنَّ هذه الأخبار لم تكن نسيجًا من خيال أو فكرة طارئة، وإنما هي حقائق يرويها من أسعده الحظ بالنجاة من المذابح التي قام بها الجيش الإيطالي الفاشيستي.

شرحوا لنا ما يلي:

١- عندما اتجهت القوات الإيطالية لاحتلال الكفرة كانت معززة بالطائرات التي تلقي قنابلها على السكان العزل من شيوخ ونساء وأطفال، وخلاف هذا سمحوا لجنودهم أن يعبثوا بالسكان لمدة ثلاثة أيام مطلقي الأيادي في البيوت والأسواق والمساجد وفي كل النواحي تصرفات وحشية لم تخطر على بال احد نهبوا وقتلوا واحرقوا كل ما مروا به ولم يتركوا أي جريمة تخطر ببالهم إلا وارتكبوها، قتلوا العلماء والمشايخ، هتكوا حرمات البيوت، وبقروا بطون النساء، وإن عدد العائلات التي قضي عليها عند احتلال الكفرة يزيد عن ٧٠ عائلة من علية القوم.

وعلاوةً على هذا؛ فقد اتخذوا زاوية السنوسي (التاج) كحانة شربوا فيها الخمر حتى ثمالة الجنون، وشربوا نخب القضاء على المسلمين واحتلال طرابلس وبرقة.. ألقوا بالمصاحف القرآنية في الإصطبلات تحت سنابك الخيل، وبالكتب العلمية أوقدوا بها النار

تحت قدورهم لطهي طعامهم، وقد استشهد من الثوار في احتلال الكفرة ما يزيد عن (٢٠٠) شهيد من بينهم المشايخ الآتية أسماؤهم:

الشيخ صالح العبادية، والحاج سليمان بومطاوي، والشيخ غيث بوقنديل، والشيخ سليمان الشريف، والشيخ محمد يونس، والشيخ أحمد بوأشناك وحفيده الشيخ عمر، والشيخ حمد الحامي، والشيخ عبد السلام بوسريويل، والشيخ محمد المسحوق وحفيده علي بن حسين، والشيخ محمد العربي، والشيخ محمد بوسجادة، والشيخ محمد الفايدي الجلولي، والشيخ خليفة الدلال.

أما الرواية الثانية هي كيف تمَّ احتلال الكفرة من أولئك الغاشمين المتوحشين من مشاهدين حقيقيين لتلك الأحداث، قبل دخول الإيطاليين إلى الكفرة قامت طائراتهم بقصف واحات الكفرة بقنابلهم الفتاكة فوق السكان العزل؛ حيث قتل عدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال، وبعد أن دخلوا الكفرة أطلقوا أيدي جنودهم لمدة ثلاثة أيام للعبث والتخريب في الكفرة فقد أطلقوا بغالهم وخيولهم؛ حيث دوت كل المزروعات فاستولوا على كل المواد الغذائية وقطعان الأغنام والبقر لتموين جنودهم المحتلين دون مقابل، وعلاوةً على هذا؛ نهبوا أثاث السكان وقسموها على إدارات الجيش الزاحف كذلك ملابس النساء وحليها، هذا قليل من كثير زد على ذلك اعتداءاتهم على حرمات الناس العزل دون وازع من ضمير، وعندما اتجه بعض المشايخ إلى قائد الحملة راجين منه إصدار أمره إلى الجنود بالكف عن هذه الاعتداءات على الناس كان مصيرهم القتل رميًا بالرصاص باعتبارهم خونة.. وبالاختصار، إنَّ الإيطاليين عندما احتلوا الكفرة قاموا بأعمال وحشية لم يسبق أن حدثت في التاريخ حتى في القرون الوسطى عهد الهمجية.

إنَّ قضية الـ(٨٠,٠٠٠) عربي الذين نقلتهم القوات الغاشمة من أراضيهم الخصبة في الجبل الأخضر إلى مناطق جدبة صحراوية لا ماء فيها ولا كلأ، هي منطقة (سرت) كي تموت المواشي جوعًا وعطشًا، أما البقية فقد استولى عليها الجنود الإيطاليون وأصبحوا فقراء تدفع لهم الحكومة الإيطالية فرنكين عن كل يوم لكل شخص مهما كان عدد عائلته، أما بالنسبة لحلي النساء وملابسها فقد نهبها الجنود الإيطاليون، وأصبحت العائلات في

هوة الفقر سواسية، وفي أثناء مرافقة هذا العدد الضخم من رجال ونساء وأطفال كان الجنود يسومونهم سوء العذاب، وكل مَن يعجز عن المسير مصيره الموت فيقتلونه ويتركونه يتخبط في دمه.

إنَّ الرجال والشبان الذين تتراوح أعمارهم من ١٥ إلى ٤٠ سنة أجبروا على الانخراط في قوات الجيش، وأما الصغار الذين تتراوح أعمارهم من ١٤ سنة، فقد أخذوا بالقوة من أهليهم وأرسلوا إلى إيطاليا بحجة تعليمهم، ولكن في الحقيقة من أجل تنصيرهم.

وهذا ما كان يتحدَّث به سكان (روما) وهو تنصير الليبيين بصورة عامة والطرابلسيين بصورة خاصة، ورغبة الإيطاليين الفاشستيين هي القضاء المبرم على العنصر الإسلامي في ليبيا، فإذن ليبيا تصيّر إيطالية وبجوارها مصر، سوف تتعرض إلى أكبر خطر، وإن مصر لن تسكت عن هذا الإجراء؛ لأن الإيطاليين في اعتقادهم المريض أن مصر ليست دولة عربية، وإنما هي خليط من عدة أجناس.. الأمر الذي يجعل إيطاليا تحلم بأن تغزو مصر وتتمكن من أراضها وشعبها كما تمكنت من طرابلس.

إنَّ الوعود المعسولة التي كانت تصرح بها السلطات الإيطالية وتمنياتها الطيبة التي كانت تعرضها على الشعب الليبي، وإنها -يعني إيطاليا- ما أتت إلا لتخلِّص الشعب الليبي من الاستبداد التركي، ولأجل أن تذر الرماد في أعين الناس، أتت بإدريس وقلدته لقب الإمارة ووعدته بالحكم الذاتي، ولكن كانت دائمًا وعودًا فقط.

وهاهي إيطاليا تلغي كل شيء، وتبدأ في سفك الدماء، وتطرد السكان من أراضيهم وأموالهم، وأخذت أولادهم وبناتهم إلى إيطاليا من أجلِ تعليمهم، وفي الواقع من أجل تنصيرهم.. إني أقول: على المسلمين أن يتذكروا هذا كله وأن يتفهموه..فإن هناك مَن يتفلسف ويتشدق بالقول بأن في أوروبا تسود العدالة والحرية، وأن الدول الأوروبية لا تتعرض للقضايا الدينية، وأن السبب في سقوط المسلمين هو التعصب الأعمى.

إنَّ هذه الألفاظ وهذه المغالطات تنذر المسلمين جميعًا بأنهم إذا لم يتحدوا ويذودوا عن حياضهم سوف يتعرضون إلى القضاء ويفقدون قواتهم المسلحة وحرياتهم السياسية،

سوف يحدث لهم كما حدث لطرابلس إذا لم يحافظوا على حريتهم واستقلالهم.. إنَّ موقف إيطاليا من حضارة القرن العشرين موقف غير مشرف؛ فقد رجعت إلى معاملات القرون الوسطى.

إنَّ الإيطاليين المتوحشين لم يتحرجوا لا كبيرًا ولا صغيرًا؛ فقد اعتدوا على الحريات.. اغتصبوا النساء وهتكوا الأعراض.. كلُّ هذه الأعمال من أجل اضطهاد المسلمين وروحهم الانتقامية.

لقد زجَّ الإيطاليون في السجون الكثير من الأهالي ومشايخ القبائل، وقد عارضهم وندد بأعمالهم الشيخ سعد الفايدي شيخ قبيلة الفوايد، فما كان منهم إلا أن قتلوه ومعه ١٥ من أبناء قبيلته البعض منهم ألقي من الطائرة من علو ٤٠٠ متر، وكلما كانت الطائرة تلقي بواحد منهم هناك كان الهتاف يعلو وصياح الجنود يزداد.

إنَّ الصحفي الدانماركي الشهير (كنود هولمبوي) الذي اعتنق الإسلام وقام بجولة سياحية أثناء هذه الفترة في ليبيا، قد شاهد بنفسه وعينيه كل التعذيب والاضطهاد الذي يقوم به الجنود الإيطاليون الفاشيست يقول:

«شاهدت ٢٠ عربيًّا مسلسلين.. شنقهم الجنود بأمر من ضابطهم دون محاكمة ولم تكن هناك محكمة.. هذا المنظر البشع أثر في نفسي ولم يكن في اعتقاده أن دول مثل إيطاليا الفاشستية وهي إحدى دول البحر الأبيض المتوسط تقوم بمثل هذه القسوة وهذه الوحشية.. إنها جرائم سيسجِّلها التاريخ في صفحة سوداء، وسيبقى وصمة عار في جبين الدولة الإيطالية على مدى الدهر والأزمان.

إنَّ إيطاليا أرادت أن تحذو حذو فرنسا في تنصير المسلمين إبان حكمها في المغرب؛ فقد عملت ووزعت المبشرين في طول البلاد وعرضها، وبنت العديد من المعابد والكنائس في كلِّ المدن والقرى؛ لتقضي على الدين الإسلامي، وهكذا عملت إيطاليا؛ فقد بنت المعابد في طرابلس وبنغازي وكل القرى وأمرت المبشرين بأن يسعوا بكل الوسائل لتنصير العرب مهما كان الثمن، وقد فاقت على فرنسا بطريقة أخرى فأخذت الأطفال من حجور أمهاتهم وبعثت بهم إلى إيطاليا إلى تلك المعاهد المسيحية؛ لتعليم هؤلاء الأطفال

الدين المسيحي.. وعزلهم عزلًا كليًا عن وطنهم وبيئتهم، بحيث يشبون ويترعرعون في الجو الفاشستي والكنيسة المسيحية.

إنَّ سياسة إيطاليا الفاشستية هي القضاء على الدين والعقيدة، وإبعاد المسلمين عن معابدهم ومساجدهم وكم من مرة صرَّح موسوليني رئيس الحكومة والحزب الفاشستي في خطاباته بعد احتلال (الكفرة) بأنه عازم على تثبيت ثلاثة ملايين من السكان الإيطاليين في الأراضي الليبية الخصبة، وقد أيَّد هذا الرأي الكثير من السياسيين وأبرزها الكثير من الصحفيين على صفحات جرائدهم ومجلاتهم.

منذ أيام قرأت بالجريدة الرسمية المرسوم الملكي القاضي بمصادرة أملاك المواطنين وأوقاف المسلمين والزوايا السنوسية وأوقافها، وبهذه الطريقة الجهنمية عملت إيطاليا الفاشستية على تملك الإيطاليين كل الممتلكات الليبية وبالتدريج وإبعاد الليبيين من كلِّ المجالات حتى تصبح ليبيا خالية من كلِّ العناصر، ولا يبقى بها إلا الإيطالي المسيحي الكاثوليكي.

إذن الكلام الصادر من الجنرال أو المارشال لم يكن إلا ذودًا وبهتانًا وتضليلًا لتهدئة المسلمين، حتى تستطيع السلطات الإيطالية الفاشستية تنفيذ أغراضها الاستعمارية، وهي إن استحوذت على الملايين من هكتارات الأراضي الزراعية وغيرها (من أين لها هذه الأراضي)؛ فالجواب معروف.. استحوذت عليها بطرد أهلها الحقيقيين ونقلهم إلى المناطق الهلاك هم ومواشيهم على السواء أمام أعين العالم المتمدن وأمام عصبة الأمم، وبالاختصار تبجَّح الإيطاليون بقولهم: «إنَّ طرابلس وبرقة كانتا رومانيتين.. فلا بدَّ أن ترجعا رومانيتين كما كانتا -هذا هو هدف الفاشيست بدون تردد.

إننا لا نصدق ما يقولون لقد خالفوا القواعد الدولية والإنسانية، ولم ينفذوا حرفًا واحدًا من تعهداتهم إلى الطرابلسيين والبرقاويين، حتى التعهدات الكتابية والاتفاقات المبرمة بينهم وبين إدريس السنوسي، فكانت عبارة عن أكاذيب وكسب للوقت.

نحن مقتنعون بأن كلَّ ما كتبناه وأعلناه على الملأ أجمع ستكذبه السلطات الفاشيستية، وستوجد لنا مضابط لكي تدحض أقوالنا، ولكن كل ما كتبناه ثابت وصحيح ومصدره من

جهة عاصرت الأحداث، وهي هيئة التحرير الليبية في دمشق فقد أثبتت الحوادث والاعتداءات بالوثائق الرسمية، وبالأخص في احتلال الكفرة فقد ارتكب الجنود الإيطاليون الفاشيست أبشع الجرائم باعتداءاتهم على النساء وقتلهم الشيوخ والأطفال، واعتدوا على حرمات المساجد والمقدسات، وقد ادعت إيطاليا بأن كل الأعمال العسكرية التي قامت بها ما هي إلا تأديب لأناس أعلنوا العصيان على دولتهم، وهذه حجة واهية لا يقبلها العقل ولا تقوم بها دولة متمدنة كما تدعيه إيطاليا الفاشيستية، وإنَّ الثوار في العرف الدولي لم يكونوا من العصاة على الدولة، وإنما هم أصحاب حق يدافعون عنه، اغتصبه عدو دخيل.

بقي عليَّ أن أختتم مقالي هذا الذي كتبته لا أريد منه تحريض المسلمين على أن ينتقموا من الإيطاليين الذين يعيشون معهم، حاشا لله، نحن لسنا من الانتقاميين ولا في الجهل مثل الإيطاليين الفاشيست، وليس من شيم أخلاقنا أن نستعمل القوة على من هو أضعف منا، وإن المسلمين لن يغيِّروا أبدًا تراثهم الخلقي الذي ورثوه أبًا عن جد، ولكني أقترح ما هو آتٍ:

١- جمعية الشبان المسلمين في كلٍّ بلد عليها أن تحتج على كلِّ أساليب الاعتداء والإجرام التي ارتكبتها إيطاليا الفاشيستية في ليبيا، وأن ترسل برقية احتجاج شديدة اللهجة إلى عصبة الأمم وتنشر على الصحف العالمية.

٢- كل المدن والمقاطعات الإسلامية التي تتقد حماسًا والدم الساخن الذي يجري في عروقهم، عليهم أن يقدموا احتجاجاتهم إلى عصبة الأمم برقيًا مستعجلًا ونشرها جميعًا على صفحات مجلاتهم وجرائدهم المحلية.

٣- أن مجموعة الدول الشرقية بالقاهرة هي كذلك عليها أن تحتج وتندِّد بأعمال القمع والعنف التي تقوم بها إيطاليا الفاشيستية وتقدِّمه إلى عصبة الأمم مثل الهيئات الأخرى.

٤- كل الهيئات الإسلامية والعربية والشرقية بالقاهرة وسوريا والعراق والعربية السعودية والهند وجاوا وغيرها لا بدَّ وأن يقوموا بواجبهم نحو القضية الليبية.

٥- عقد اجتماعات شعبية في المدن الإسلامية، وإلقاء الخطب الحماسية لشرح ظلم

واستبداد السلطات الإيطالية الفاشيستية وهتافات بسقوط العدو الغاصب.

٦- يجب على كلِّ المسلمين أن يقاطعوا كلَّ البضائع الإيطالية والسفن وكلَّ الوسائل والأعمال وكلَّ شيء يحمل اسم إيطاليا، وقطع كل العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكذلك تكوين لجان شعبية خاصة بمراقبة البضائع الإيطالية.

٧- طبع المنشورات وكتيبات تبيِّن فيها تصرفات إيطاليا الفاشيستية واضطهادها للشعب الليبي، ويكون طبعها كذلك باللغة الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، ويكون توزيعها بالآلاف في أوروبا وفي كل العالم، ومن واجب كل مسلم أن يقوم بإلصاق هذه المنشورات في كلِّ الشوارع والميادين، وتوزيع الكتيبات في كل مكان من العالم، كذلك على كلِّ مسلم أن يعلِّق في بيته بعضًا من هذه المنشورات حتى لا ينسى ما يعانيه الشعب الليبي من اضطهاد وتعذيب.

أيها المسلمون:

لا تقولوا بأن هذا الحديث في طرابلس وليبيا فقط، وإنما الليبيون الشرفاء طعنوا في شرفهم.. في دمائهم.. في دينهم.. وفي أموالهم وممتلكاتهم، وكذلك سيحدث لكم أنتم مثل هذه المأساة، وسيحل بكم العذاب كما حلَّ بالليبيين الشرفاء إذا لم تدافعوا عن أنفسكم، إذا لم تبيِّنوا أنفسكم أنكم أحياء.

أيها المسلمون:

في الوقت الحالي لن تستطيعوا الدفاع عن أنفسكم وبسلاحكم فقط، بل سخِّروا أقلامكم، وكذلك باجتهادكم وبصبركم على المكائد، لتدافعوا عن كيانكم وعن أرضكم وعن مقدساتكم وتثبِتوا للعالم بأنكم شعب يعرف كيف يقاوم.

لوزان ١٢ ذو القعدة

٧ أبريل ١٩٣١م

شكيب أرسلان

قال شكيب أرسلان: ولما حررت المقالة التي نشرتها عن فجائع طرابلس وبرقة سنة ١٩٣١م على إثر دخول الطليان إلى الكفرة، وارتجف لها العالم الإسلامي غضبًا وعلا الصراخ من كلِّ جهة جاءني من الشهيد الأكبر بطل الجبل الأخضر السيد عمر المختار الكتاب الآتي:

عاشرًا: رسالة من عمر المختار إلى شكيب أرسلان

كانت تلك الجهود التي قام بها الأمير شكيب أرسلان وصلت أخبارها للمجاهدين، فأرسل قائد حركة الجهاد رسالة شكر واحترام وتقدير لتلك الأعمال، وهذا نص الرسالة:

«إنه من خادم المسلمين عمر المختار إلى المجاهد الأمير الخطير، أخينا في الله وزميلنا في سبيل الله الأمير شكيب أرسلان -حفظه الله- بعد السلام الأتم والرضوان الشامل الأعم ورحمة الله وبركاته، قد قرأنا ما دبَّجه قلمكم السيال عن فظائع الطليان، وما اقترفته الأيدي الأثيمة من الظلم والعدوان بهذه الديار، فإني وعموم إخواني المجاهدين نقدِّم لسامي مقامكم خالص الشكر، وعظيم الممنونية.

كلُّ ما ذكرتموه عما اقترفته أيدي الإيطاليين هو قليل من كثير، وقد اقتصدتم واحتطتم كثيرًا، ولو يذكر للعالم كل ما يقع من الإيطاليين لا توجد أذن تصغي لما يروى من استحالة وقوعه، والحقيقة -والله وملائكته شهود- أنه صحيح، وأننا في الدفاع عن ديننا ووطننا صامدون، وعلى الله في نصرنا متوكلون، وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته في ٢٠ ذي الحجة ١٣٤٩هـ»[1].

وقد علَّق شكيب أرسلان على تلك الرسالة؛ فقال: «وما لاحظه الشهيد المشار إليه هو عين الحقيقة، فإن الناس يصعب عليهم أن يصدقوا الشناعات والدناءات والنذالات التي أقدم عليها الطليان في طرابلس ولاسيما الفاشيست منهم»[2].

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (٢/ ٨٤).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٨٤).

إنَّ رسالة عمر المختار للأمير شكيب أرسلان نستخلص منها فوائد جمة، ففي قوله: «من خادم المسلمين» دليلٌ على تواضعه وافتخاره بكونه من خدَّام المسلمين، وهذا المعنى له مدلول عند الشيخ عمر المختار، فهو يتقرَّب إلى الله تعالى بخدمة المسلمين، وهي من أعظم القربات عند الله تعالى، وفي قوله: «إلى المجاهد الأمير الخطير» وصف الأمير شكيب بالمجاهد، وهو بالفعل جاهد مع الليبيين بجانب جنود الأتراك ضد الطليان، وفيه دلالة على اهتمام عمر المختار بالمصطلحات الشرعية، فلم يقل: مناضل، أو مكافح، أو ثائر.. وإنما تقيد بوصفه مجاهد؛ لدلالة هذه الكلمة وعمقها في أوساط المسلمين، ووصفه بـ«الخطير» كيف لا. وقد كانت مقالاته أنفذ من الرصاص في قلوب الإيطاليين، وساهمت في تشكيل تعاطف إسلامي وعربي كبير مع القضية الليبية العادلة، وفي قوله: «أخينا في الله» فيه دلالة رابطة العقيدة التي جعلت المسلمين إخوة، فهي فوق كل الروابط الأرضية، وفي قوله: «بعد السلام الأتم والرضوان الشامل الأعم» فيها قوة العبارة، وبلاغة الأسلوب، وروعة المدخل، وفي قوله: «قد قرأنا ما دبَّجه قلمكم السيال عن فظائع الطليان» دليلٌ على متابعة المجاهدين لما يجري خارج البلاد، وله علاقة بقضية شعبنا، وأما بقية الرسالة ففيها تأكيد للأمير شكيب عن المعلومات التي وصلت إليه وقام بنشرها، وفيها إصرار قوي على مواصلة الجهاد والدفاع عن الدين والوطن، وفيها توكل على الله.

عظيم هذا، وقد قامت جمعية الشبان المسلمين بمصر بنشر بيان عن سياسة الإبادة والاستئصال التي تبعتها إيطاليا في طرابلس الغرب، وألقي ذلك البيان في اجتماع عظيم في نادي جمعية الشبان المسلمين، ووقَّع عليه أهل الرأي والمكانة في مصر ليرسل إلى جمعية الأمم، ويذاع في العالم الإسلامي، وجاء في ذلك البيان الحديث عن:

١- **سياسة التهجير**: لقد شهدت مصر مشهدًا لا تستطيع الإنسانية أن تعرض عنه متجاهلة ما انطوى عليه من الآلام، وذلك أن مئات من بني الإنسان بين رجال ونساء وأطفال وشيوخ اضطروا تحت ضغط الجور إلى أن يتركوا أوطانهم تخلصًا من الظلم، وأن يهيموا على وجوههم في القفار، ولولا مروءة مأجور الواحات المصري الذي خرج هو ورجاله للبحث عنهم حتى لقيهم وأنقذهم لهلكوا عطشًا وجوعًا، أولئك هم فريق من إخواننا الطرابلسيين الذين خرجوا من قسوة الحكم الإيطالي الذي لا يطاق.

٢- سياسة القتل والرمي في البحر: ولم تكد أعيننا تكفكف الدموع على هذا المشهد الذي شهدته على اليابسة حتى حملت إلينا أمواج البحر في السلوم مشهدًا آخر أفظع من هذا وأشنع، فرمى البحر إلى هذا الساحل المصري أربع عشرة جثة من جثث هؤلاء الطرابلسيين مغلولة في سلسلة واحدة.

٣- عمل الإيطاليين في الكفرة: ثم توالت الأخبار بأن زاوية الكفرة المنقطع أهلها للعبادة قد أمطرتها طائرات الإيطاليين بالقنابل وفتكت بأهلها فتكًا ذريعًا، وبعد ذلك هاجمها الجيش، وكاد يأتي على البقية من أهلها، ولم يتعفف عن هتك الأعراض وسلب الأموال وبقر بطون الحوامل.

٤- قتلهم لأهل العلم: وقد قتل من أهل الكفرة في هذه النازلة كثيرون، منهم: الشيخ أبو شنة، وابن أخيه الشيخ عمر، والشيخ حامد الهامة، والشيخ عبد السلام أبو سريويل، والشيخ محمد المنشوف، وابن أخيه علي بن حسين، والشيخ محمد العربي، والشيخ محمد أبو سجادة، والشيخ أحمد الفاندي الجلولي، والشيخ خليفة الدلاية.

٥- قتلهم لكبار شيوخ الكفرة: ولما ذهب كبار شيوخ زاوية الكفرة إلى القائد الكبير يرجونه وضع حد لهذه المذابح أمر بذبحهم، فذبحوا أمامه كما تذبح الشِّياه.

٦- قتل الأبرياء برميهم من الطائرات: ومن الفظائع التي ارتكبها الإيطاليون في برقة، ونقلها الرواة الصادقون أنهم وضعوا أحد مشايخ عائلة الفوائد المدعو الشيخ سعد وخمسة عشر شخصًا من العرب في الطائرات وارتفعوا بهم عن سطح الأرض ثم جعلوا يلقونهم واحد بعد الآخر ليموتوا موتةً لم يسبق لها مثيل.

٧- انتزاع الأراضي من أهاليها وتجويعهم: ومن الفظائع التي ارتكبوها في الجبل الأخضر إخراج أهله منه وهم لا يقل عددهم عن ثمانين ألف عربي إلى بادية سرت القاحلة، ثم أذاعوا بواسطة قنصليتهم في بلاد الأرجنتين أن حكومة طرابلس وبرقة تعطي الأراضي الخصبة فيها لكلِّ إيطالي يريد النقلة إليها، وبلغت مساحة الأراضي التي أخذت غصبًا نحو من مائتي ألف هكتار، ولا تزال الحكومة الإيطالية تحث الإيطاليين على استعمار هذه الأراضي، وقبل انتزاع أراضي الجبل الأخضر من أهله في هذه السنة انتزعت

في سنة ١٩٢٤م ما مساحته ٤٢٠ ألف هكتار بدون مقابل، وفي بعض الأحيان كان المقابل عن المائة ألف هكتار ستة آلاف فرنك إيطالي -أي: خمسين جنيهًا تقريبًا، وقد خرج أهالي الجبل الأخضر عند انجلائهم منه، وهم لا يملكون ما يقتاتون به، فرتبوا لكل عائلة فرنكين في اليوم، وهم الآن يعيشون بهذا المرتب عيشة بؤس تفتت الأكباد، وفي أثناء نقلهم إلى صحراء سرت كان كلما عجز واحد منهم عن مواصلة المشي يرمى بالرصاص.

٨- **ترحيل الأطفال إلى إيطاليا لتنصيرهم**: وفضلًا عن كلِّ ذلك؛ فقد جمع الإيطاليون الأطفال الوطنيين من سن ٣ إلى ١٤، وأخذوهم من أهلهم، وأرسلوهم إلى إيطاليا بزعم تعليمهم فيها، وجمعوا الشبان من سن ١٥ إلى ٤٠، وألحقوهم بالجيش واستخدموهم في محاربة أهلهم وبلادهم.

٩- **إرساليات التبشير بين الأهالي**: وبلغ الاستهتار بالشعور الإسلامي مبلغًا عظيمًا بين إرساليات التبشير المنبثة الآن بين الأهالي، ومن صدور الأوامر المشددة على الخطباء في الجوامع بالدعاء لملك إيطاليا على المنابر.

١٠- **خداعها للأهالي**[(١)]: وقد حدث مرارًا أن الحكومة تعلن عن العفو والأمان، فإذا وقع العفو عنهم وغدو في قبضتهم غدرت بهم، وممن ذهبوا ضحية هذا الغدر من رؤساء القبائل: خليفة بن عسكر، والشيخ عبيدة الصرماني، وأحمد الباشا، وإبراهيم بن عباد، والهادي كعبار وابنه محمد كعبار، والشيخ أحمد أحمد الحجاوي، والشيخ علي الشويخ، والشيخ عبد السلام بن عامر، والشيخ محمد التريكي، والشيخ شرف الدين العمامي، والشيخ أحمد بن حسن بن المنتصر، والشيخ عمر العوراني، والشيخ محمد عبد العال، ومن الضحايا من لا يعرف لهم ذنب: الشيخ صالح العوامي وهو شيخ يبلغ التسعين عامًا من أهل العلم والصلاح، قبضت عليه إيطاليا سنة ١٩٢٣م وزجته في سجن بنغازي إلى أن مات فدفن بمحل مجهول، فأرواح هؤلاء الضحايا تصيح بالإنسانية جميعها، وبجمعية الأمم بنوع خاص أن هلمي إلى إنقاذ البقية الباقية من أبناء الإنسانية المعذبة في هذه الربوع من سياسة الفتك والاستئصال والإبادة التي تتبعها إيطاليا في

(١) انظر: مجلة المنار، ج٩، م٣، ص٧١٤ - ٧١٦.

طرابلس المنكودة.

إنَّ العالم الإسلامي يعتبر ما وقع ويقع في طرابلس الغرب عدوانًا مباشرًا على كلِّ مسلم مهما كانت جنسيته ووطنه، وسيبقى عار هذه الأعمال لاصقًا لإجراء تحقيق دولي حر دقيق في نفس بلاد برقة وطرابلس عن كلِّ ما جرى فيها وإعلان نتيجته كما تقتضيه العدالة والحق، والموقعون على هذا يطلبون من جمعية الأمم إجراء هذا التحقيق تنزيهًا للإنسانية عن لحوق هذا العار بها إلى الأبد، ويرجون بإلحاح أن يكون لهم مندوب يختارونه مع لجنة التحقيق، وهم ينتظرون ما تقرره العصبة في هذا الشأن بفارغ الصبر.

التوقيعات:

١- محمد الشرقاوي.

٢- خليل الخالدي رئيس الاستئناف الشرعي بفلسطين.

٣- محمد رشيد رضا منشئ مجلة المنار الإسلامية.

٤- محمد عبد اللطيف دراز من العلماء وعضو مجلس إدارة.

٥- جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

٦- محمد عبد الرحمن قراعة من العلماء ومدرس بالأزهر الشريف.

٧- عبد الوهاب النجار.. وكيل جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.

٨- محمد كامل القصاب.

٩- محمد تقي الدين الهلالي، الأستاذ الأول للآداب العربية بندوة العلماء بالهند.

١٠- علي سرور الزنكلوني، المدرس بقسم التخصص بالأزهر.

لقد عبث الجنود الإيطاليين بالمكتبة السنوسية التي كانت ثروة علمية ضخمة، فأخذت أيدي الجنود تبددها ذات اليمين وذات الشمال، وتقد بها النيران للطعام، وأخيرًا صدرت الأوامر بجمع ما تبقى منها ونقله إلى بنغازي، فنقلته أربعون سيارة شحن كبيرة وعدد كبير من الإبل، ولم تنج هذه المكتبة بعد وصولها إلى بنغازي من العبث؛ فقد تسرب الكثير منها إلى أيدي الأفراد، ونقل قسم كبير منها إلى إيطاليا، وهكذا وصلت يد الفساد

الإيطالية إلى كلِّ شيء في ليبيا[١].

عندما تمَّ اعتقال جميع أهالي برقة وحصرهم، وتم احتلال واحة الكفرة لم يعد إذن أمام سفاح برقة إلا شيء واحد هو إتمام وضعية مد الأسلاك الشائكة التي ستفصل بين برقة ومصر فصلًا نهائيًّا، فأخذ في سرعة تتميمها مجندًا لذلك كل ما لديه من إمكانيات، وكان قد استدعى شركات المقاولات الخاصة من إيطاليا، فتعهدت كل شركة منها بإتمام الجزء المخصص لها تحت إشراف القيادة العسكرية التي وضعت مهندسيها تحت تصرف هذه الشركات، وقد استوردت الحكومة الإيطالية معدات خاصة من ألمانيا فضلًا عما جاءت به من إيطاليا لهذا الغرض المطلوب، ووضعت تحت تصرف هذه الشركات عشرات الآلاف من العمال الذين جندتهم من المعتقلات تلهب ظهورهم السياط، وهكذا امتد خط الأسلاك الشائكة من البحر المتوسط إلى ما بعد الجغبوب، فكان طوله حوالي ثلاثمائة كيلومتر، ثم وضع غراسياني نقاط عسكرية مزودة بجميع المعدات الحربية، وربط بعضها ببعض من حيث الاتصال فيما إذا احتاجت نقطة لمساعدة الأخرى تهب بسرعة، ومن هذه النقاط: مساعد، والشقة، وبئر الغبي، وقبر صالح، وسيدي عمر، وبئر حكيم، ثم زوَّد غراسياني هذا السياج المحكم بمولدات كهربائية لمده بالنور حتى لا يستطاع الإفلات منه مهما تكن الأحوال، وإذا ما قدر لأي إنسان أن يصل إليه، فسيواجه معركتين عسيرتين لا سبيل لإفلاته من إحداهما إذا ما تيسر له الإفلات من الأخرى، وتتمثل المعركتان في محاولة تقطيع الأسلاك، وفي الدفاع عن النفس، وتقطيع الأسلاك يحتاج إلى معدات فنية وإلى وقت من الزمن؛ فكيف إذن لمن يتمكن من الوصول إلى هذا السياج إجراء عملية التقطيع وعملية الدفاع في آنٍ واحدٍ[٢].

كان المجاهدون مستمرين في جهادهم والقوات الإيطالية تشتبك معهم وهي مجهزة بالمصفحات والطائرات والمدفعية، وكان القتال لا يتوقف، وقد أورد الجنرال غراسياني في كتابه أنه التقى مع عمر المختار في مائتين وستين معركة خلال الثمانية عشر شهرًا ابتداءً من حكمه في برقة إلى أن وقع عمر المختار أسيرًا، وقد ثبت المجاهدون في حالتي الدفاع والهجوم.

---

(١) انظر: عمر المختار، ص١٣٤.

(٢) انظر: عمر المختار، ص١٣٥.

كان المجاهدون يقضون معظم أوقاتهم في حالة استعداد قصوى، ويوجهون الضربات المحكمة للطليان، وحار سفاح برقة في أمر المجاهدين، ورغم الإجراءات التي اتخذها والتي كان يثق في فائدتها إلا أنه أصيب بالقنوط واليأس وأصبح كل أمله في موت عمر المختار الطبيعي قائلًا لكبار مرؤسيه في أكثر من مناسبة: «إنَّ عمر المختار شيخ كبير ولا بدَّ من موته عاجلًا أو آجلًا، فعلينا أن ننتظر تلك الساعة ولعلها لا تكون بعيدة»، وفكَّر غراسياني ذات مرة تفكيرًا غريبًا وإن كان لا يستغرب على تفكيره أي شيء.. فكَّر في إحراق جميع غابات الجبل الأخضر، ودرس هذا الموضوع جديًا مع مستشاريه السياسيين والعسكريين[1]، إلا أن السيد صالح بك المهدوي أحد زعماء بنغازي استطاع أن يثني غراسياني عن هدفه بعد أن اجتمع به وشرع غراسياني يتكلم عن عمر المختار محملًا مسئولية ذلك إلى جميع أهل البلاد، وقال عنهم: «لو أنهم صدقوا معنا لما استمر عمر المختار في موقفه اليائس يقاتل جنودنا»، ثم انتقل فجأة ليتحدث عن موضع حرق غابات الجبل الأخضر وقال: «إنَّ الحكومة الإيطالية يهمها أن تنهض بهذه البلاد، وإن عمر المختار وقف عقبة في سبيل النهوض، وحاولت الحكومة أكثر من مرة أن تنصحه للإقلاع عن محاربتنا، ولكنه رفض الانصياع إلى نصائح الحكومة معتمدًا على اختفائه في مغارات الجبل وغاباته، ولقد صممت أن أزيل هذه الغابة التي يحتمي وراءها ساخرًا بقوة الحكومة».

وسكت الجنرال قليلًا، ثم طلب من صالح بك المهدوي أن يشاركه البحث في هذا الموضوع؛ فأجابه بقوله: «إنَّ عمر المختار سينتهي بلا شك، فقاطعني عند كلمتي هذه بقوله: «إكُّو إكُّو.. كويستا لفيريتا.. يانوتا يانوتا... سينتا سينتا... ديري ديري.. أوانتي أوانتي..»، ومعنى هذه الكلمات الإيطالية هو: هكذا.. هكذا.. هذه هي الحقيقة، (... اسمع يايانوتا (الترجمان) اسمع... اسمع... قل... قل... استمر.... استمر) إنكم يا دولة الوالي اتخذتم بحزم جميع الاحتياطات التي من شأنها القضاء عليه، والمسألة مسألة وقت. لا أقل ولا أكثر، وهنا تحمس الجنرال لكلماتي هذه كأنها صادفت هوى في نفسه، أو كأنني

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٣٧.

قلت له شيئًا كان يريد أن يسمعه.

وقلت له مواصلًا الحديث: إنَّ الدولة الإيطالية في حاجة لاستثمار كل شجرة في هذه البلاد، وسوف يكون فضل هذا الاستثمار المنتظر على أيديكم، فإذا ما أقدمتم على حرق الغابات والكلمة الأخيرة لدولتكم، فسوف يمر زمن طويل وطويل جدًّا دون إعادتها من جديد لما كانت عليه، هذا إذا لم يكن إعادتها مستحيلًا، وإليكم يا دولة الوالي نذكر مسألة لها وجه الشبه برأيكم هذا.. في عهد الدولة العثمانية قامت قبيلة البراعصة بعصيان ضد الحكومة، وتعذر على الحكومة إنهاء العصيان، واعتبرت أن غابات الجبل الأخضر كانت أكبر مشجع للقبائل على العصيان، فتتخذ منه مخابئ لا يقوى الجنود العثمانيون على اكتشافها، فأرادت الحكومة أن تقوم بحرق جميع الغابات وسمع السلطان بذلك فاعترض على هذه الفكرة قائلًا: «إذا كان الموجب لعصيان الأهالي هو تمنعهم عن دفع العشور والعوائد الحكومية؛ فإنني أدفعها عنهم من جيبي الخاص حماية للغابات في الجبل الأخضر، ولا أوافق على حرقها».. وعندما انتهيت من الحديث معه ودعني شاكرًا»[1].

لقد حرص صالح بك المهدوي على حماية الجبل الأخضر من عبث غراسياني الذي كانت في يده إمكانات إيطاليا للقضاء على حركة الجهاد، ولذلك جادل وناقش وحاول أن يقنع غراسياني بالإقلاع عن تلك الفكرة الجهنمية، لقد قال صالح بك عندما سئل عن صحة ما إذا كانت الحكومة العثمانية فكّرت في إحراق غابات الجبل الأخضر، فأجاب بقوله: «إنَّ المسألة التي ضربت بها المثل للجنرال غراسياني كانت لها أثر في عهد قديم، والحديث عنها يطول، والطليان لا يريدون ذكرها من وجهة سياسية محضة، وعلى كلِّ حال كنت أرمي بذكرها للجنرال غراسياني إلى حماية جبلنا من عبث هذا المجنون الذي وضعوا في يده سيفًا حادًّا».

كان غراسياني يملك القوات الضخمة في البر والبحر والجو، والسلطة الغاشمة المستبدة في برقة، والخزائن المرصوفة بالأموال، والسجون والمعتقلات والمشانق، ومع هذا يضعف ويسيطر عليه العجز أمام المجاهدين وقائدهم العظيم حتى دفعه تفكيره إلى حرق

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٣٩.

الغابات بعد أن تمكن من حرق الأكباد والأفئدة والأجسام، لقد وقع تحت تأثير عصبي حاد من جراء ما أصابه من الفشل الذريع، وكان في طريقه إلى الاستقالة أو الإقالة لولا تقدير الله بوقوع عمر المختار في الأسر[1].

* * *

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٤١.




الفصل الثالث

الأيام الأخيرة من حياة المختار ووقوعه في الأسر ثم إعدامه




صفحة فارغة

المبحث الثالث

الأيام الأخيرة من حياة المختار ووقوعه في الأسر ثم إعدامه

اولا: أحمد الشريف يحترق على بلاده ويرسل محمد اسد لمعرفه اخبار المجاهدين:

كان محمد أسد صاحب كتاب (الطريق إلى الإسلام) قد تعرَّف على أحمد الشريف أثناء إقامته في الحجاز، وقد تأثر به غاية التأثر، وأحبه حبًّا عظيمًا، يقول محمد أسد: «ليس في الجزيرة العربية كلها شخص أحببته كما أحببت السيد أحمد، ذلك أنه ما من رجل ضحى بنفسه تضحية كاملة مجردة عن كلِّ غاية في سبيل مثل أعلى، كما فعل هو.. لقد وقف حياته كلها عالمًا ومحاربًا على بعث المجتمع الإسلامي بعثًا روحيًّا، وعلى نضاله في سبيل الاستقلال السياسي، ذلك أنه كان يعرف جيدًا أن الواحد لا يمكن أن يتحقق من دون الآخر»[1].

لقد تعرَّف محمد أسد على أحمد الشريف بواسطة المجاهد الإندونيسي حاجي آغوس سالم الذي كان يمثِّل مركز القيادة في جهاد إندونيسيا ضد أعدائها، وكان قد جاء معه بقصد الحج، وعندما عرف السيد أحمد الشريف أن محمد أسد حديث عهد بالإسلام مدَّ إليه يده وقال: «مرحبًا بك بين إخوانك، يا أخي الشاب..»[2].

لقد أحب محمد أسد أحمد الشريف وتفاعل مع قضية ليبيا، وكان يمضي معه وبصحبة السيد محمد الزوي الساعات الطوال للبحث في وضع المجاهدين في ليبيا، واستمرت الاجتماعات في مساء كل يوم طيلة أسبوع تقريبًا لبحث ما كان بالإمكان صنعه، وقد رأى الشيخ محمد الزوي أن إمداد المجاهدين بين الفينة والأخرى لم يكن من شأنه أن يحل المشكلة، فقد كان يعتقد أن واحة الكفرة في الجنوب من صحراء ليبيا يجب أن

---

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٣١.

(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٤٤٦.

تكون ثاني محور لكلِّ العمليات الحربية في المستقبل، وكان يظن أن الكفرة كانت ما تزال بعيدة عن تناول الجيوش الإيطالية، وفوق ذلك فقد كانت تقع على طريق القوافل (ولو كان طويلًا وشاقًا) إلى واحتي بحرية وفرفرة المصريتين، ولذا كان يمكن تموينها بصورة جادة أكثر من أي موقع آخر في ليبيا، كما كان يمكن أن يتحول كثير من المهاجرين إلى مصر إليها لتكون مستودعًا دائمًا لإمداد عمر المختار في الشمال، وكان أحمد الشريف مستعدًا للذهاب بنفسه، لو أمكن إعادة تنظيم القتال على تلك الصورة، للإشراف على العمليات الجهادية بنفسه[1].

لقد تحدَّث محمد أسد عن سبب اهتمامه بالقضية السنوسية؛ فقال: «لم يكن اهتمامي البالغ بمصير السنوسيين ناشئًا عن إعجابي ببطولتهم المتناهية في قضية عادلة مقسطة فحسب، بل إن ما كان يهمني أكثر من ذلك هو ما كان يمكن أن يحدثه انتصار السنوسيين من تأثير على العالم العربي بأكمله؛ إذ إنني لم أستطع أن أرى في العالم الإسلامي كله إلا حركة واحدة كانت تسعى صادقة إلى تحقيق المجتمع الإسلامي المثالي: الحركة السنوسية، التي كانت تحارب الآن معركتها الأخيرة في سبيل الحياة، وبسبب أن السيد أحمد كان يعرف مبلغ عطفي الشديد على القضية السنوسية، فقد التفت إليَّ وسدَّد نظره إلى عيني وسألني قائلًا: «هل تذهب يا محمد إلى برقة بالنيابة عنا، فتقف على ما يمكن صنعه للمجاهدين؟ لعلك تستطيع أن ترى الأمور بأحلى مما يراها بنو قومي...»[2].

وبعد أن وافق محمد أسد على تلك المهمة الصعبة تناول أحمد الشريف من على أحد الرفوف نسخة من القرآن الكريم ملفوفة بغلاف من الحرير، وبعد أن وضعها على ركبتيه أمسك بيدي اليمنى بين يديه ووضعها على الكتاب: «أقسم يا محمد بالله الذي يعلم ما في القلوب، على أنك ستبقى أمينًا للمجاهدين...».

قال محمد أسد: «فأقسمت ولم أشعر في حياتي يومًا أنني كنت أكثر وثوقًا بوعدي مما

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٤٧.

كنت في تلك اللحظة»[١].

قام أحمد الشريف بترتيب أمور هذه الرحلة، واتصل باتباع الحركة في مصر ووصل الخبر إلى عمر المختار واستعد محمد أسد لهذه الرحلة المثيرة مع رفيقه زيد من قبيلة شمر، وشرع في تنفيذ خطواته، وكان رجال الحركة السنوسية يقودونه بمهارة بارعة حتى وجد نفسه أمام عمر المختار في الجبل الأخضر، وقد فصَّل الأستاذ محمد أسد تلك الرحلة في كتابه المشهور[٢].

لقاؤه بعمر المختار:

بعد دخول محمد أسد إلى الجبل الأخضر من جهة الصحراء الغربية المصرية بواسطة المجاهدين الذين أرسلهم عمر المختار لاستقباله وجد محمد أسد نفسه أمام قائد حركة الجهاد، ويصف لنا محمد أسد ذلك اللقاء فيقول: «كان يحيط به رجلان من كلِّ جانب، ويتبعه كذلك عدد آخر، وعندما وصل إلى الصخور التي كنا ننتظر عندها، ساعده أحد رجاله على النزول، ورأيت أنه كان يمشي بصعوبة (عرفت بعدئذٍ أنه قد جرح إبان إحدى المناوشات قبل ذلك بعشرة أيام)، وعلى ضوء القمر المشرق استطعت الآن أن أراه بوضوح.. كان رجلًا معتدل القامة، قوي البنية، ذا لحية قصيرة بيضاء كالثلج، تحيط بوجهه الكئيب ذي الخطوط العميقة، وكانت عيناه عميقتين، ومن الغضون المحيطة بهما كان باستطاعة المرء أن يعرف أنهما كانتا ضاحكتين براقتين في غير هذه الظروف، إلا أنهما لم يكن فيهما الآن شيء غير الظلمة والألم والشجاعة.

واقتربت منه لأحييه، وشعرت بالقوة التي ضغطت بها يده على يدي (مرحبًا بك، يا ابني)، قال ذلك وأخذ يجيل عينيه فيَّ متفحصًا، لقد كانت عيني رجل كان الخطر خبزه اليومي.

وفرش أحد رجاله حرامًا على الأرض، فجلس سيدي عمر عليه متثاقلًا، وانحنى عبد الرحمن[٣] ليقبِّل يده ثم شرع بعد استئذانه، يوقد نارًا خفيفة تحت الصخرة التي كنا

(١) المصدر السابق نفسه، ص٣٤٨.

(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٤٨ - ٣٦٠.

(٣) هذا من المجاهدين الذين استلموا محمد أسد ورفيقه عند الحدود المصرية.

محتمين بها، وعلى ضوء النار الخافت قرأ سيدي عمر الكتاب الذي حملنيه السيد أحمد إليه، لقد قرأه باهتمام وعناية، ثم طواه ووضعه لحظة فوق رأسه - وهي إمارة الاحترام والحب لا يكاد المرء يراها في جزيرة العرب، ولكنه كثيرًا ما يراها في شمالي إفريقيا- ثم التفت إلي مبتسمًا وقال: «لقد أطراك السيد أحمد، أطال الله عمره، في كتابه.. أنت على استعداد لمساعدتنا، ولكنني لا أعلم من أين يمكن أن تأتينا النجدة، إلا من الله العلي الكريم.. إننا حقًّا على وشك أن نبلغ نهاية أجلنا..».

فقلت: «ولكن.. هذه الخطة التي وضعها السيد أحمد، ألا يمكن أن تكون بداية جديدة؟ وإذا أمكن تدبير الحصول على المؤن والذخائر من الكفرة بصورة ثابتة، أفلا يمكن صد الإيطاليين؟»[1].

لم أرى في حياتي ابتسامة تدلُّ على ذلك القدر من المرارة واليأس كتلك الابتسامة التي رافقت جواب سيدي عمر: «الكفرة؟! لقد خسرنا الكفرة، فالإيطاليون قد احتلوها منذ أسبوعين تقريبًا...»[2].

وأذهلني الخبر، ذلك إنني والسيد أحمد، طوال تلك الأشهر الماضية كنا نبني خططنا على افتراض أن الكفرة يمكن أن تكون نقطة تجمُّع لتقوية المقاومة، أما وقد ضاعت الكفرة؛ فإنه لم يبق للسنوسيين سوى نجد الجبل الأخضر لا شيء سوى كماشة الإيطاليين التي كانوا يضيقونها بثبات واستمرار.. وخسارة نقطة بعد نقطة.. واختناق بطيء».

- وكيف سقطت الكفرة؟

فأومأ سيدي عمر إيماءة متعبة إلى أحد رجاله أن يقترب: «دع هذا الرجل يقص عليك الخبر.. إنه واحد من أولئك القلائل الذين هربوا من الكفرة، ولم يصل عندي إلا بالأمس».

وجلس الكفري على ردفيه أمامي وجذب برنسه البالي حوله وتكلَّم ببطء دون أن يبدو في

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٦٠، ٣٦١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٣٦١.

صوته أي أثر للانفعال، ولكن وجهه الناحل كان يعكس جميع الأهوال التي شهدها.

- «لقد خرجوا علينا في ثلاث فرق من ثلاث جهات، وكان معهم سيارات مصفحة ومدافع ثقيلة كثيرة.. أما طائراتهم فقد حلقت على علو منخفض ورمت بالقنابل البيوت والمساجد وغياض النخيل، لم يكن لدينا سوى بضع مئات من الرجال يستطيعون حمل السلاح، أما الباقون فقد كانوا نساء وأطفالًا وشيوخًا، لقد دافعنا عن أنفسنا بيتًا بيتًا، ولكنهم كانوا أقوى كثيرًا منا، وفي النهاية لم يبق إلا قرية الهواري، لم تنفع بنادقنا في سياراتهم المصفحة فطغوا علينا، وتمكن عدد قليل جدًّا من الهرب، أما أنا؛ فقد اختبأت في حدائق النخيل، مترقبًا الفرصة لشق طريقي خلال الخطوط الإيطالية، وكنت طوال الليل أسمع ولولة النساء اللواتي كان الجنود الإيطاليون والعساكر الإريتريون يغتصبونهن، وفي اليوم التالي أحضرت لي امرأة عجوز بعض الماء والخبز، وأخبرتني أن الجنرال الإيطالي قد حشد كل ما تبقى على قيد الحياة أمام قبر السيد محمد المهدي وأمام أعينهم مزق نسخة من القرآن الكريم، ثم رماها إلى الأرض وداس عليها بحذائه صائحًا: «دعوا نبيكم البدوي يساعدكم الآن، إذا استطاع!!» ثم أمر بقطع أشجار النخيل في الواحة وهدم آبارها، وأحرق كلَّ ما كان في مكتبة السيد أحمد البدوي من كتب، وفي اليوم التالي أصدر أمره بوضع بعض شيوخنا وعلمائنا في طائرة حلقت بهم ورمتهم من علو شاهق، وطوال الليلة التالية كنت أسمع من مخبئي صرخات النساء وضحكات الجنود وطلقات بنادقهم... وأخيرًا زحفت إلى الصحراء في ظلام الليل، فوجدت جملًا شاردًا امتطيته ووليت فرارًا...»[1].

وعندما أنهى الرجل قصته المروعة قرَّبني سيدي عمر إليه بلطف وكرَّر قوله: «إنك تستطيع أن ترى، يا بني، إننا قد اقتربنا فعلًا من نهاية أجلنا»، ثم أضاف: «إننا نقاتل؛ لأن علينا أن نقاتل في سبيل ديننا وحريتنا حتى نطرد الغزاة أو نموت نحن وليس لنا أن نختار غير ذلك، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد أرسلنا نساءنا وأولادنا إلى مصر كيما نطمئن على سلامتهم متى شاء الله لنا أن نموت».

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٦٢.

قلت: «ولكن يا سيدي عمر، أليس من الأفضل لك وللمجاهدين أن تنسحبوا إلى مصر بينما لا يزال هناك طريق مفتوح أمامكم؟ فلقد يكون من الممكن في مصر جمع المهاجرين الكثيرين من برقة، وتنظيم قوة أكثر فعالية وجدوى.

إنَّ القتال هناك يجب أن يوقف بعض الوقت حتى يستعد الرجال شيئًا من قوتهم... أنا أعرف أن البريطانيين في مصر لا ينظرون بعين الرضا إلى وجود قوات إيطالية راسخة الأقدام على خاصرتهم، فقد يغضون الطرف، والله أعلم، عن استعداداتكم فيما إذا أقنعتموهم بأنكم لا تعتبرونهم أعداء...».

فأجاب: «كلا يا ابني، لم يعد هذا يجدي الآن، إنَّ ما تقوله كان ممكنًا منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة، قبل أن يقوم السيد أحمد -أطال الله عمره- بمهاجمة البريطانيين كي يساعد الأتراك -الذين لم يساعدونا... أما الآن؛ فلم يعد في الأمر ما يجدي.. إنَّ البريطانيين لن يحركوا إصبعًا لكي يسهلوا علينا أمرنا، والإيطاليون مصممون على أن يقاتلونا حتى النهاية، وعلى سحق كل إمكانية للمقاومة في المستقبل، فإذا ذهبت وأتباعي الآن إلى مصر، فإننا لن نتمكن مطلقًا من العودة ثانية، وكيف نستطيع أن نتخلى عن قومنا ونتركهم ولا زعيم لهم، لأعداء الله يفترسونهم؟».

- وما قول السيد إدريس؟ هل يشاركك الرأي يا سيد عمر؟

- «إنَّ السيد إدريس رجل طيب.. إنه ولد طيب لوالد عظيم، ولكن الله لم يعطه قلبًا يمكنه من تحمُّل مثل هذا الصراع...»[1].

كان زيد الشمري رفيق محمد أسد في رحلته بصحبة خليل أحد المجاهدين لإحضار قرب الماء، وبعدما رجع وقع بصر خليل على سيدي عمر هجم لتقبيل يده، وبعد ذلك قدم محمد أسد زيدًا إلى عمر المختار، فوضع المختار يده على كتفه وقال: «مرحبًا بك، يا أخي، من أرض أجدادي، من أي العرب أنت؟»، وعندما أخبره زيد أنه من قبيلة شمر، أومأ عمر برأسه مبتسمًا: «آه، إذن أنت من قبيلة حاتم الطائي، أكرم الناس يدًا...».

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٦٣.

وقدَّم لهم رجال المختار بعض التمر ودعاهم المختار إلى ذلك الطعام البسيط فأكلوا، ونهض قائد المجاهدين وقال: «إنَّ لنا أن نتحرك من هنا.. إننا على مقرب من المركز الإيطالي في بوصفية، ولذا لا نستطيع أن نتأخر حتى الفجر».

وتحرَّك محمد أسد مع قائد حركة الجهاد ووصل إلى معسكر المجاهدين ووقعت عيناه على امرأتين إحداهما مسنة والأخرى شابة –في المعسكر كانتا جالستين بالقرب من أحد النيران، مستغرقتين في إصلاح سرج ممزق بمخرز غليظ.

وعندما لحظ الشيخ عمر المختار دهشة محمد أسد قال: «إنَّ أختينا هاتين تذهبان معنا حيثما نذهب، لقد رفضتا أن تسعيا إلى أمن مصر مع سائر نسائنا وأولادنا، إنهما أم وابنتها، وقد فقدتا جميع رجالهما في الحرب...»[1].

اتفق عمر المختار مع محمد أسد على طريقة إمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح عن طريق الطريق التي جاء منها محمد أسد، مع إنشاء مستودعات سرية في واحات بحرية وفرفرة وسيوه، وكان عمر المختار يشك في إمكانية الإفلات من مراقبة الإيطاليين بهذه الطريقة مدة طويلة.

وقد تبيَّن بعد ذلك أن ظنونه ومخاوفه كانت في محلها، ذلك أنه بعد بضعة أشهر تمكنت قافلة تحمل المؤن والذخائر من الوصول فعلًا إلى المجاهدين، إلا أن الإيطاليين اكتشفوها بينما كانت تجتاز الفجوة بين الجغبوب وجالو، وسريعًا ما أنشئوا بعد ذلك مركزًا محصنًا في بير طرفاوي على نصف المسافة تقريبًا بين الواحتين، مما جعل، بالإضافة إلى الدوريات الجوية المستمرة، كل مسعى آخر من هذا النوع خطرًا إلى أبعد الحدود[2].

وكان قد تقرر رجوع محمد أسد وزيد الشمري إلى الحجاز ورجوع من حيث أتوا بواسطة المجاهدين البواسل الذي رتبوا الأمور، وأخذوا بالأسباب، وحافظوا على ضيوفهم الكرام.

يقول محمد أسد: «وودعت وزيد عمر المختار، ولم نره بعد ذلك إطلاقًا، ذلك أنه بعد

---

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٦٥.

(٢) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص٣٦٦.

ثمانية أشهر قبض عليه الإيطاليون وأعدموه».

وقد وصف لنا محمد أسد آخر لقاء مع السيد أحمد الشريف فقال: «ومرة أخرى وقفت أمام إمام السنوسية ونظرت إلى وجه ذلك المحارب القديم المرهق، ومرة أخرى قبّلت اليد التي حملت السيف طويلًا جدًّا، حتى إنها لم تعد تستطيع بعد أن تحمله».

- «بارك الله فيك، يا ابني.. لقد مضت سنة منذ أن التقينا أول مرة، وهذه السنة قد شهدت نهاية آمالنا، ولكن الحمد لله على كلِّ حال...».

والحقُّ، إنها كانت سنة مفعمة بالهموم والأكدار بالنسبة إلى أحمد: لقد أصبحت الأخاديد حول فمه أكثر عمقًا، وأصبح صوته أكثر انخفاضًا من أي وقت مضى.

لقد هوى النسر.. إنه يجلس منكمشًا على السجادة، وقد لفَّ نفسه ببرنسه الأبيض كأنما يطلب الدفء، ويحدق بصمت في الفراغ وهمس: «لو إننا استطعنا فقط أن ننقذ عمر المختار، لو إننا تمكنا من إقناعه بالهرب إلى مصر بينما كان هناك متسع من الوقت...».

فقلت له: «لم يكن باستطاعة أحد أن ينقذ سيدي عمر.. إنه لم يرد أن ينقذ، لقد فضَّل أن يموت إذا لم يستطع أن ينتصر، لقد عرفت ذلك عندما فارقته يا سيدي أحمد...»[1].

إنَّ أحمد الشريف اهتم ببلاده بمجرد هجرته منها، وكان على اتصال بالمجاهدين، وقد حدثني السيد عبد القادر بن علي أن أحمد الشريف قام بكتابة رسائل إلى قبائل برقة يحثهم فيها على السمع والطاعة للشيخ عمر المختار -رحمهم الله.

ثانيًا: الأسد يقع أسيرًا

ظلَّ المختار في الجبل الأخضر يقاوم الطليان على الرغم من هذه الصعوبات الجسيمة التي كانت تحيط به وبرجاله، وكانت من عادة عمر المختار الانتقال في كلِّ سنة من مركز أقامته إلى المراكز الأخرى التي يقيم فيها إخوانه المجاهدون لتفقد أحوالهم، وكان إذا ذهب لهذا الغرض يستعد للطوارئ، ويأخذ معه قوة كافية تحرسه من العدو الذي يتربص به الدوائر في كلِّ زمان ومكان، ولما أراد الله أن يختم له بالشهادة ذهب في هذه السنة

(١) انظر: الطريق إلى الإسلام، ص ٣٧٠.

كعادته في نفر قليل يقدر بمائة فارس، ولكنه عاد فرد من هذا العدد ستين فارسًا وذهب في أربعين فقط، ويوجد في الجبل الأخضر وادٍ عظيم معترض بين المجاهدين اسمه «وادي الجريب» -بالتصغير، وهو صعب المسالك كثير الغابات، كان لا بدَّ من اجتيازه، فمر به عمر المختار ومن معه، وباتوا فيه ليلتين، وعلمت بهذا إيطاليا بواسطة جواسيسها في كلِّ مكان، فأمرت بتطويق الوادي على عجل من جميع الجهات بعد أن جمعت كل ما عندها من قوة قريبة وبعيدة، فما شعر عمر المختار ومن معه إلا وهم وسط العدو(١).

وقرَّر منازلة الأعداء وجهًا لوجه، فإما أن يشق طريقًا يمكنه من النجاة أو يلقى ربه شهيدًا في الميدان الذي ألف فيه مصارعة الأعداء، والتحمت المعركة داخل الوادي، وحصد رصاص المجاهدين عددًا كبيرًا من الأعداء، وسقط الشهداء، وأصيب عمر المختار بجراح في يده، وأصيب فرسه بضربة قاتلة، وحصلت يده السليمة تحت الفرس، فلم يتمكن من سحبها، ولم تسعفه يده الجريحة وأصبح لسان حاله يقول:

أسِرْتُ وَما صَحبي بعُزْلٍ لَدى الوَغى ... وكم مِنْ صَدى صَوتي ليوث الشرى فروا

وما أحد في الحربِ يجهلُ سطوتي ... وَلا فَرَسي مُهرٌ وَلا رَبُّهُ غَمرُ

وَلكِن إذا حُمَّ القَضاءُ عَلى امرِئٍ ... يكون ولا يغني مِن القدرِ الحذرُ

ومَن رام مِن أمرِ الإلهِ وقايةً ... فَلَيسَ لَهُ بَرٌّ يَقيهِ وَلا بَحرُ(٢)

والتفت المجاهد ابن قويرش فرأى الموقف المحزن وصاح في إخوانه الذين شقوا الطريق للخروج من الحصار قائلًا: «الحاجة التي تنفع عقبت، أي: تخلفت»، فعادوا لتخليص قائدهم، ولكن رصاص الطليان حصد أغلبهم، وكان ابن قويرش أول من قتل وهو يحاول إنقاذ الشيخ الجليل، وهجم جنود الطليان على الأسد الجريح دون أن يعرفوا شخصيته في البداية، وتمَّ القبض عليه وتعرَّف عليه أحد الخونة، وجاء الكمندتور داود باتشي متصرف درنة ليتعرف على الأسير، وبمثل سرعة البرق نقل عمر المختار إلى ميناء سوسة محاطًا بعدد كبير من الضباط والجنود الإيطاليين، وأخذت كافة الاحتياطات

(١) انظر: السنوسية دين ودولة، ص٣١٣.
(٢) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٤٥.

لحراسة جميع الطرق والمواقع القريبة لتأمين وصول المجاهد العظيم إلى سوسة، ومن ثم نقل فورًا إلى بنغازي عن طريق البحر(١).

يقول غراسياني في مذكراته: «في صباح يوم ١١ سبتمبر ١٩٣١م وصل الخبر برقيًّا إلى الحكومة من متصرفية الجبل هذا نصها: «بالقرب من (سلطنة) فرقة الفرسان (الصواري) قبضت على وطني وقع من على جواده أثناء المعركة، وقد تعرَّف عليه عساكرنا بأنه عمر المختار، ونظرًا للخبر المهم ومن أجل التأكد والتحقق أمرت الحكومة متصرف الجبل الحكومندتور (الوجيه داود ياتشي)، فجهزت طائرة خاصة لنقله إلى (سلطنة) على الفور للتعرف على شخصية الأسير وتثبت هويته إن كان هو زعيم المجاهدين عمر المختار، وتأكد متصرف الجبل من أنه عمر المختار، وسرى الخبر سريان البرق، وصدرت الأوامر بنقله إلى بسلطنة، ومنها إلى سوسة تحت حراسة شديدة؛ حيث وصلها عند السابعة عشر من مساء نفس اليوم سبتمبر ١٩٣١م دون أي عائق أو حادث أثناء الطريق من سلطنة إلى سوسة، مكث هناك في انتظار الطراد الحربي (أورسيني) الذي تحرَّك من بنغازي خصيصًا ليعود بالأسير إلى بنغازي، وفي أثناء الرحلة تحدَّث معه بعض السياسيين التابعين لإدارتنا ووجهوا إليه الأسئلة، فكان يجيب بكلِّ هدوء وبصوت ثابت وقوي دون أي تأثر بالموقف الذي هو فيه، وفي يوم ١٢ سبتمبر ١٩٣١م عند الساعة السابعة عشر وصل الطراد أورسيني إلى ميناء بنغازي حاملًا معه الأسير عمر المختار...»(٢).

وقال أيضًا: «هذا الرجل أسطورة الزمان الذي نجا آلاف المرات من الموت ومن الأسر، واشتهر عند الجنود بالقداسة والاحترام؛ لأنه الرأس المفكر والقلب النابض للثورة العربية (الإسلامية) في برقة، وكذلك كان المنظم للقتال بصبر ومهارة فريدة لا مثيل لها سنين طويلة، والآن وقع أسيرًا في أيدينا»(٣).

وهذا الاعتراف من غراسياني الخسيس في كتابه بأن عمر المختار قاد المعارك سنين

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٤٦.
(٢) انظر: برقة الهادئة، ص٢٧٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص٢٦٦، ٢٦٧.

طويلة واعترف بأنه محترم من اتباعه إلى مكانة عالية جدًّا، ثم بأنه الرأس المفكر والقلب النابض للجهاد الإسلامي المقدس في برقة ثم الصبر والمهارة التي لا مثيل لها؛ فهذا اعتراف من الجنرال غراسياني خريج الكليات الحربية والأكاديمية العسكرية، وله تجارب طويلة في حرب الاحتلال إلى حرب العالمية الأولى وحروبه الصحراوية حتى لقَّبه بنو قومه بلقب «أسد الصحراء»، والفضل ما شهدت به الأعداء.

ويقول الجنرال غراسياني عن عمر المختار أيضًا: «كان عمر المختار كرئيس عربي مؤمن بقضية وطنه، وله تأثير كبير على اتباعه مثل الرؤساء الطرابلسيين يحاربون بكلِّ صدق وإخلاص، أقول ذلك عن تجارب مرت بي أثناء الحروب الليبية، وكان عمر المختار من المجاهدين الكبار لما له من مكانة مقدسة بين اتباعه ومحبيه.. إنَّ عمر المختار يختلف عن الآخرين؛ فهو شيخ متدين بدون شك، قاسي وشديد التعصب للدين ورحيم عند المقدرة، ذنبه الوحيد يكرهنا كثيرًا، وفي بعض الأوقات يسلط علينا لسانه ويعاملنا بغلظة، مثل الجبليين، كان دائمًا مضادًا لنا ولسياستنا في كلِّ الأحوال، لا يلين أبدًا ولا يهادن إلا إذا كان الموضوع في صالح الوطن العربي الليبي، ولم يخن أبدًا مبادئه؛ فهو دائمًا موضع الاحترام رغم التصرفات التي تحدث منه في غير صالحنا.. إنَّ خيانة موقعة (قصر بن قدين) ضيَّعت على عمر المختار كل الفرص التي يمكن للدولة الإيطالية أن ترحمه فيها»[1].

وقال غراسياني في مذكراته: «أما وصف عمر المختار؛ فهو معتدل الجسم، عريض المنكبين، شعر رأسه ولحيته وشواربه بيضاء ناصعة، يتمتع بذكاء حاضر وحاد، كان مثقفًا ثقافة علمية دينية، له طبع حاد ومندفع، يتمتع بنزاهة خارقة لم يحسب للمادة أي حساب متصلب ومتعصب لدينه، وأخيرًا كان فقيرًا لا يملك شيئًا من حطام الدنيا إلا حبه لدينه ووطنه، رغم أنه وصل إلى أعلى الدرجات حتى أصبح ممثلًا كبيرًا للسنوسية كلها»[2].

وهذا وصف دقيق يدلُّ بوضوح على عظمة المختار وإمكانياته الذاتية التي وهبه الله

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٦٨.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٧١.

إياها، فتقلد بسببها أكبر المناصب وخاض أكثر المعارك.. وصفه عدوه بصفات الورع والتدين ومثقف ثقافة دينية وعلمية.. وصفه بشدة المراس والصبر على الشدائد، وهكذا يا أخي المسلم الكريم يصنع الإسلام من اتباعه.

ثالثا: دخول المختار في سجن بنغازي

وعندما وصل الأسير إلى بنغازي لم يسمح لأي مراسل جريدة أو مجلة بنشر أخبار أو مقابلات، وكان على الرصيف مئات من المشاهدين عند نزوله في الميناء، ولم يتمكن أي شخص مهما كان مركزه أن يقترب من الموكب المحاط بالجنود المدججين بالسلاح، ونقل فوق سيارة السجن تصحبه قوة مسلحة بالمدافع الرشاشة؛ حيث أودع في زنزانة صغيرة خاصة منعزلة عن كافة السجناء السياسيين، وتحت حراسة شديدة وجديدة، ويقول مترجم كتاب (برقة الهادئة) الأستاذ إبراهيم سالم عامر: «كنت من الذين أسعدهم الحظ على أن يتكلموا مع بطل الجهاد عمر المختار أثناء قيامه في السجن، فقد أوقفوا كل الأهالي المعتبرين في مراكز الأمن والسجون، وكان نصيبي في سجن بنغازي المركزي، وعندما أتي بعمر المختار غيَّروا الحراس المحليين بحراس أريتريين والموظفين بالإيطاليين من الحزب الفاشيستي، وبعد أن أودعوه في الزنزانة كان هناك سرير من خشب وقماش، وعلى الأرض قطعة من السجاد البالي لأجل وقع الرجلين عليه، فسحبها الشهيد بقرب الجدران وجلس عليها، واستند على الجدران ومدَّ رجليه إلى الأمام، وعندما كان مدير السجن يتجول على زنزانات السجناء رأى الشهيد جالسًا على الأرض، ولم يستطع أن يسأله: لماذا هو جالس على الأرض، ولأن المدير لا يعرف العربية، فناداني من بين السجناء السياسيين وطلب مني أن أترجم سؤاله، فسألت الشهيد، فأجاب بصوت هادر كالأسد الهصور: «قُلْ له: أنا أعرف أين أجلس، لا يحمل همًّا؛ فهذا ليس من شأنه»، فترجمت الكلام فانصعق المدير واصفر وجهه، وقال: «هيا ارجع إلى مكانك» بلهجة الأمر غير أن قلبي كاد يطير من صدري فرحًا عندما سمعت هذه الإجابة القاطعة، رحم الله عمر المختار كم كان عظيمًا وهو قائد وأعظم وهو أسير»[1].

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٧٤، ٢٧٥.

ويقول غراسياني الجنرال الإيطالي السفاك الجلاد: «وأثناء الرحلة من سوسة إلى بنغازي أعطى لنا معلومات هامة عن كيفية سقوطه في الأسر والقبض عليه قائلًا عندما ضرب جواده وسقط على الأرض، فجرحت يده اليمنى مما سببت له بعض التشقق في عظام ذراعه، ورغم هذا الألم حاول جر نفسه ليبتعد ويختفي في أحد الشجرات التي في الغابة، ولكن فرقة الفرسان حالت بينه وبين غرضه، وقد تعرَّف عليه أحد الصواري من فرقة الفرسان، وسرعان ما أحاطت به قوتنا، وقد تأسف كثيرًا أثناء حديثه بأن رفاقه حاولوا إنقاذه بكلِّ وسيلة، وقد ضاع منهم بعض الرفاق ولكن الكثرة حالت دون بغيتهم، كذلك قلة الذخيرة لها عاملها الأصلي في عدم إنقاذي، وأثبت كذلك أن وقوعه في الأسر لا يعني توقف الثورة والجهاد، بل هناك أربعة من القادة يحلون محلي، وهم الشيخ حمد بوموسى، وعثمان الشامي، وعبد الحميد العبار، ويوسف بورحيل المسماري، وهذا الأخير هو أقربهم إليه؛ لأنه كان دائمًا بجانبه، ولقد بالغ كثيرًا بالنسبة لعدد الجنود، فقد قال: إن دوره يتكون من ٥٠٠ مقاتل عادي، و٤٠٠ فارس، واستطرد قائلًا شارحًا أن وقوعه في الأسر لا يؤثر ولا يغيِّر سير القتال أو وضع الدور، بل سيزداد قساوة، ثم أضاف: «إني أحارب الإيطاليين الفاشيستيين لا لأني أكره الشعب الإيطالي، ولكن ديني أمرني بالجهاد فيكم؛ لأنكم أعداء الوطن»[1].

قلت: ما أعلم أحد من المسلمين الصادقين يجد في نفسه ودًّا للنصارى على العموم، فكيف بالذين يقولون: الله ثالث ثلاثة، ويقولون: عيسى ابن الله، لكن قول غراسياني أن عمر المختار لا يبغض الشعب الإيطالي؛ فهذا ادعاء منه، وأما قول عمر المختار: «ديني أمرني بقتالكم»؛ فهذا الذي يليق بحاله، ويبغض المسلم للنصارى الكفرة يدينون بها خالقهم ورازقهم ومالكهم ومتولي أمورهم، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٧٦.

وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[المائدة: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[مريم: ٨٨-٩١].

فالآيات السابقة الواضحة البينة تمنع العالم الرباني والشيخ الجليل أن يقول بأنه لا يبغض أعداء الله حماة الصليب.

واستطرد غراسياني في كتابه (برقة الهادئة) قائلًا: «لقد قال عمر المختار كلمات تاريخية: «إنَّ وقوعي في الأسر تأكيد بأمر الله وسابق في علمه -سبحانه وتعالى-، والآن أنا بين يدي الحكومة الإيطالية الفاشيستية، وأصبحت أسيرًا عندها، والله يفعل بي ما يشاء.. أخذتموني أسيرًا، ولكم القدرة أن تفعلوا بي ما تشاءون، والذي أريد أن أقوله بكلِّ تأكيد: لم أفكر في يوم من الأيام أن أسلِّم نفسي لكم مهما كان الضغط شديدًا، ولكن مشيئة الله أرادت هذا؛ فلا راد لقضاء الله»[(١)].

وهذه بعينها عقيدة القضاء والقدر، وهي من أركان الإيمان التي جاء بها الإسلام، وقد تجسَّدت في حياة عمر المختار؛ فهذه الآيات الكريمة تبيِّن ما وقع للإنسان قد كتب؛ فعليه ألا يحزن ولا ييأس؛ لأن الأمور بقضائه وقدره، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

[الحديد: ٢٢-٢٣].

وقد تربَّى المختار -رحمه الله تعالى- على الآيات القرآنية وأحاديث المصطفى ﷺ فعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ «وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[(٢)].

---

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٧٦.

(٢) انظر: أصول أهل السنة والجماعة اللالكائي (٢/ ح١٠٩٥).

وهذه العقيدة الصحيحة كانت مستقرة في قلب الشيخ الجليل -رحمه الله- وتحوَّلت إلى عمل في حياته جسدته مواقف عقدية ومشاهد بطولية، ولا نكون مخطئين أن قلنا: كانت مواقفه وسيرته العطرة تدل على أنه رجل عقيدة.

رابعًا: من مواقف العزة داخل السجن

أراد الكمندتور رينسي (السكرتير العام لحكومة برقة) في أمسية الرابع عشر من سبتمبر أن يقحم الشارف الغرياني في موقف حرج مع عمر المختار، وهو في السجن وأبلغ الشارف الغرياني بأن المختار طلب مقابلتك والحكومة الإيطالية لا ترى مانعًا من تلبية طلبه، وذهب الشارف الغرياني إلى السجن لمقابلة الشيخ الجليل وعندما التقيا خيَّم السكوت الرهيب ولم يتكلم المختار، فقال الشارف الغرياني هذا المثل الشعبي مخاطبًا به السيد عمر: «الحاصلة سقيمة، والصقر ما يتخبل»، وما كاد المختار يسمع المثل المذكور حتى رفع رأسه ونظر بحدة إلى الشارف الغرياني وقال له: «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه»، وسكت هنيئة ثم أردف قائلًا:

«رب هب لي من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا، إنني لم أكن في حاجة إلى وعظ أو تلقين، إنني أومن بالقضاء والقدر، وأعرف فضائل الصبر والتسليم لإرادة الله، إنني متعب من الجلوس هنا، فقل لي ماذا تريد».

وهنا أيقن الشارف الغرياني بأنه غرِّر به فزاد تأثره وقال للمختار: «ما وددت أن أراك هكذا، ولقد أرغمت نفسي للمجيء بناءً على طلبك... فقال الشيخ الجليل والجبل الشامخ: «أنا لم أطلبك، ولن أطلب أحدًا ولا حاجة لي عند أحد»، ووقف دون أن ينتظر جوابًا من الشارف الغرياني، وعاد الأخير إلى منزله وهو مهموم حزين وقد صرَّح بأنه شعر في ذلك اليوم بشيء ثقيل في نفسه ما شعر به طيلة حياته، ولما سئل الشارف الغرياني عن نوع الثياب التي كان يرتديها عمر المختار أهي ثياب السجن أم ثيابه التي وقع بها في الأسر؟ كان جوابه هو البيتان الآتيان مستشهدًا بهما:

عَلَيهِ ثِيَابٌ لَو تُبَاعُ جَمِيعُهَا ... بِفَلْسٍ لَكَانَ الفَلْسُ مِنهُنَّ أَكثَرا

وَفِيهِنَّ نَفسٌ لَو تُقَاسُ بِبَعضِهَا   نُفوسُ الوَرى كانَت أَجَلَّ وَأَكبَرا [(١)]

خامسًا: عمر المختار أمام غراسياني السفاح

أراد المولى عز وجل لحكمة يريدها أن يقف البطل الأشم والطود الشامخ الذي حيَّر إيطاليا الكافرة النصرانية الكاثوليكية وأشاع الرعب في قلوب جيوشها، أمام الرجل التافه الحقير المدعو غراسياني هذا حقير النفسية، وضيع الأخلاق، من أولئك الذين يرتفعون في كلِّ عهد، ويأكلون على كلِّ مائدة، وكان من قادة الجيش الإيطالي، فلما جاء موسوليني ذلك الطبل الأجوف، وادَّعى الزعامة على إيطاليا وحشر نفسه حشرًا في صفوف الزعامات العالمية، كان غراسياني أول من صفق وقرع الطبول للزعامة الجديدة، وصار فاشيستيًّا أكثر من الفاشيستيين أنفسهم، أمام هذا الرجل الحقير الذليل الخسيس التافه وقف البطل الأشم والطود المنيف شيخنا عمر المختار -رحمه الله، وتستطيع أن تفكر في هذا الموقف وتطيل التفكير، فإن النفوس الحقيرة الوضيعة، لا تعرف الشرف ولا الرجولة ولا الكرامة ولا الأخلاق إذا خاصمت، فما يكاد عدوها يقع في يدها حتى تفعل به الأفاعيل، وتصب عليه أصنافًا وألونًا من العذاب!! يدفعها إلى ذلك شدة إحساسها بحقدها وعظمة عدوها وشدة شعورها بنقصها وكمال أسيرها[(٢)].

من أجل ذلك دفعت الشماتة هذا الرجل الحقير أن يقطع رحلته إلى باريس وأن يعود فورًا إلى بنغازي، وأن يدعو المحكمة الطائرة إلى الانعقاد، ودفعت غريزة الشماتة غراسياني أن يستدعي البطل في صبيحة اليوم نفسه، وقبل المحاكمة بقليل[(٣)].

يقول غراسياني في مذكراته: «وعندما حضر أمام مدخل مكتبي تهيأ لي أني أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية، يداه مكبلتان بالسلاسل، رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة وجهه مضغوطًا؛ لأنه كان مغطيًا رأسه (بالجرد)، ويجر نفسه بصعوبة نظرًا لتعبه أثناء السفر بالبحر،

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٦٦، ١٦٧.
(٢) انظر: عمر المختار، محمود شلبي بتصرف، ص١٤٢.
(٣) انظر: عمر المختار لشلبي، ص١٤٢.

وبالإجمال يخيل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر.. هاهو واقف أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوت هادئ وواضح، وكان ترجماني المخلص النقيب (كابتن) خليفة خالد الغرياني الذي أحضرته معي خصيصًا من طرابلس ووجهت له أول سؤال: لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة الفاشيستية؟[1]

ج- لأن ديني يأمرني بذلك[2].

س- هل كنت تأمل في يوم من الأيام أن تطردنا من برقة بإمكانياتك الضئيلة وعددك القليل؟

ج- لا، هذا كان مستحيلًا.

س- إذن ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه؟

ج- لا شيء إلا طردكم من بلادي؛ لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهو فرض علينا، وما النصر إلا من عند الله.

س- لكن كتابك يقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، بمعنى لا تجلبوا الضرر لأنفسكم ولا لغيركم من الناس، القرآن يقول هذا؟

ج- نعم.

س- إذن لماذا تحارب؟

ج- كما قلت من أجل وطني وديني»[3].

قال غراسياني: «فما كان مني إلا أن قلت له: أنت تحارب من أجل السنوسية تلك المنظمة التي كانت السبب في تدمير الشعب والبلاد على السواء، وفي الوقت نفسه كانت المنظمة تستغل أموال الناس بدون حق، هذا هو الحافز الذي جعلك تحاربنا لا الدين والوطن كما قلت».

---

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٧٩.
(٢) انظر: عمر المختار، ص١٤٣.
(٣) انظر: برقة الهادئة، ص٢٨٠.

عمر المختار: نظر إليَّ نظرة حادة كالوحش المفترس: لست على حق فيما تقول، ولك أن تظن ما ظننت، ولكن الحقيقة الساطعة التي لا غبار عليها أنني أحاربكم من أجل ديني ووطني لا كما قلت، بان عليَّ وجهه بعد أن زال الجرد من على رأسه واستطردت في توجيه الأسئلة إليه:

س- لماذا قطعت المهادنة السارية، وأمرت بالهجوم على (قصر بن قدين).

ج- لأنه منذ شهر أرسلت إلى المارشال (بادوليو)، ولم يجيبني عنها وبقيت بدون رد حتى الآن.

يقول الجنرال: لا أنت أردت قطع المهادنة لحاجة في نفسك وهاك الدليل، وقرأت له البيان الذي نشره فوق الجرائد المصرية بتوقيعه؟ولم يرد في بادئ الأمر وحنى رأسه مفكرًا ثم قال:

عمر المختار -نعم نشرت البيان في مصر بتوقيعي، ولكن ليس هذا هو الدليل، وإنما هو عدم تجاوبكم معنا في تنفيذ شروط الهدنة، ولم يزد شيئًا، بل حنى رأسه إعياءً.

س- هل أمرت بقتل الطيارين هوبر وبياتي؟

ج- نعم، كل الأخطاء والتُّهم في الواقع هي مسئولية الرئيس والحرب هي الحرب.

الجنرال: قلت له: هذا صحيح لو كان حربًا حقيقية لا قتل وسلب مثل حروبك.

عمر المختار: هذا رأي، فيه إعادة نظر، وأنت الذي تقول هذا الكلام ولازلت أكرر لك الحرب هي الحرب.

الجنرال: بموقفك في موقعة (قصر بن قدين) ضيَّعت كل أمل وكل حق في الحصول على رحمة وعفو الحكومة الإيطالية الفاشيستية.

عمر المختار: مكتوب (كلمة لتفسير معنى القضاء والقدر في العقيدة الإسلامية)، وعلى كل عندما وقع جوادي وألقي القبض عليَّ كانت معي ست طلقات، وكان في استطاعتي أن أدافع عن نفسي وأقتل كل مَن يقترب مني حتى الذي قبض عليَّ، وهو أحد الجنود من فرقة الصواري المتطوعين معكم، وكان في إمكاني كذلك أن أقتل نفسي.

الجنرال: ولماذا لم تفعل؟

عمر المختار: لأنه كان مقدرًا أن يكون.

الجنرال: ولكن قد تحقق فيما بعد إلقاء القبض عليه كانت بندقيته فوق ظهره وبسقوطه على الأرض لم يستطع نزعها، وبالتالي لم يتمكن من استعمالها بسرعة، وكذلك من أثر الجروح والكسر الذي بيده اليمنى، وهذا في الحقيقة جدير بالاعتبار والتقدير»[١].

وهذا اعتراف من السفاح إبان تجبره وطغيانه ونشوة انتصاره يعترف بقوة عمر المختار، ويقدر فيه بطولته وجهاده التي لم ير لها مثيل، وقال شوقي -رحمه الله- في رثاء عمر المختار ما يجسِّد هذا الموقف:

جُرحٌ يَصيحُ عَلى المَدى وَضَحِيَّةٌ   تَتَلَمَّسُ الحُرِّيَةَ الحَمراءَ[٢]

عمر المختار: كما ترى أنا طاعن في السن على الأقل اتركني بأن أجلس.

الجنرال: أشرت له، فجلس على كرسيه أمام مكتبي، وفي هذه الأثناء ظهر لي وجهه بوضوح، وقد زالت رهبة الموقف، وقد تأملته جانبيًا فرأيت بعض الاحمرار في وجهه، وبدأت أفكر كيف كان يحكم ويقود المعارك، وبينما هو يتكلم كانت نظراته ثابتة إلى الأمام وصوته نابع من أعماقه، ويخرج من بين شفتيه بكلمات ثابتة، وبكلِّ هدوء، وفكرت ثانية هذا هو القديس؛ لأن كلامه عن الدين والجهاد يدل بكلِّ تأكيد أنه مؤمن صادق يتكلم عن الدين بكلِّ حماس وتأثر، ثم قلت له فجأةً: بما لك من نفوذ وجاه، كم يوم يمكنك أن تأمر العصاة (يعني المجاهدين) بأن يخضعوا لحكمنا ويسلِّموا أسلحتنا وينهوا الحرب؟

عمر المختار: مجيبًا أبدًا كأسير لا يمكنني أن أعمل أي شيء واستطرد قائلًا: وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلنا الواحد بعد الآخر ولا نسلِّم أو نلقي السلاح، وأنا هنا لم يسبق لي أن استسلمت هنا على ما أظن حقيقي وثابت عندكم.

الجنرال: قلت له وأنا متماسك: يمكن ذلك لو تمَّ تعارفنا في وقت سابق والخبرة

---

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٨٠ -٢٨٢.

(٢) انظر: تعليق المترجم، إبراهيم بن عامر، ص٢٨٢.

طويلة التي أخذتها عليكم لكان علينا أن نصل إلى أحسن حال في سبيل تهدئة البلاد وازدهارها.

عمر المختار: رفع حاجبيه بكلِّ عمق وبصوت جهوري وثابت قال: «ولِـمَ لا يكون اليوم هو ذلك اليوم الذي تقول عنه».

الجنرال: فأجبته: لقد فات الأوان.

وعند هذا الحد رأيت أن نوقف المحادثة فيما بيننا ربما عمر المختار فكَّر في تلك اللحظة أن الحكومة الإيطالية ستبعثه إلى الجبل من أجل أن يسلِّم أتباعه السلاح ويخضعوا إلى سلطتنا، ولكن لا، لقد قالها منذ لحظات بأنهم يموتون جميعًا ولن يستسلموا، وعليه لقد فات الأوان وقلتها بنفسك لا فائدة من المحاولة.. إنَّ الأمل الذي لاح منذ قليل قد انهار ولم يعد.

ثم قلت له: هل تعرف هذه؟ وعرضت عليه نظاراته في إطارها الفضي.

عمر المختار: نعم إنها لي، وقد وقعت مني أثناء إحدى المعارك وهي معركة (وادي السانية).

(الجنرال) فأجبته: منذ ذلك اليوم اقتنعت بأنك ستقع أسيرًا بين يدي.

عمر المختار: مكتوب: هل ترجعها لي لأني لم أعد أبصر جيدًا بدونها.

واستطرد يقول: ولكن ما الفائدة منها الآن هي وصاحبها بين يديك.

(الجنرال) قلت له: مرة أخرى أنت تعتبر نفسك محميًا من الله، تحارب من أجل قضية مقدسة وعادلة؟

(عمر المختار): نعم، وليس هناك أي شك في ذلك، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١] صدق الله العظيم.

إذن استمع إلى ما أقوله لك، أمام قواتي المسلحة من نالوت إلى الجبل الأخضر في برقة كل مشايخ ورؤساء العصاة (يعني رؤساء المجاهدين)، منهم مَن هرب، ومنهم مَن قتل في ميدان القتال، ولم يقع منهم أي أحد حيًّا في يدي، أليس من العجيب أن يقع أسيرًا بين

يدي حيًّا مَن كان يعتبر أسطورة الزمن الذي لم يغلب أبدًا المحمي من الله دون سواه؟!

(عمر المختار): تلك مشيئة الله... قالها بصوت يدل على قوة وعزم.

(الجنرال) قلت له: الحياة وتجاربها تجعلني أعتقد وأؤمن بأنك كنت دائمًا قويًّا، ولهذا؛ فإني أتمنى أن تكون كذلك مهما يحدث لك، ومهما تكن الظروف.

(عمر المختار) عندما وقف ليتهيأ للانصراف، كان جبينه وضاء كأن هالة من نور تحيط به، فارتعش قلبي من جلالة الموقف أنا الذي خاض المعارك والحروب العالمية والصحراوية، ولقبت بـ«أسد الصحراء»، ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان، ولم أستطع أن أنبس بحرف واحد، فانتهت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه للمحاكمة في المساء، وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتي، ولكنه لم يتمكن لأن يديه كانت مكبلة بالحديد.

لقد خرج من مكتبي كما دخل عليَّ وأنا أنظر إليه بكلِّ إعجاب وتقدير[1].

قال شوقي -رحمه الله:

وَأَتى الأَسيرُ يَجُرُّ ثِقلَ حَديدِهِ ... أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقطاءَ

سادسًا: محاكمة عمر المختار -رحمه الله

في الساعة الخامسة مساءً في ١٥ سبتمبر ١٩٣١م جرت تلك المحاكمة التي أعد لها الطليان مكان بناء (برلمان برقة) القديم، وكانت محاكمة صورية شكلًا وموضوعًا.

ودليل ذلك أن الطليان -قبَّحهم الله- كانوا قبل بدء المحاكمة بيوم واحد قد أعدوا (المشنقة) وانتهوا من ترتيبات الإعدام وتنفيذ الحكم قبل صدوره، وإنك لتلمس ذلك في نهاية الحديث الذي دار بين البطل وبين غراسياني؛ حيث قال له: «إني لأرجو أن تظل شجاعًا مهما حدث لك أو نزل بك».

وإنها لكلمات تفوح بالخبث والدناءة والشماتة، ومعناها إنك يا مختار سوف تعدم شنقًا، فلا تجبن أمام المشنقة، ولا شك عندي لو كان غراسياني في موقف شيخنا لمات من

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٨٥.

الجبن قبل أن يساق للمشنقة، ولكن شيخنا الجليل وأستاذنا الكريم وقائد الجهاد يزداد سموًا بعد سمو، ثم يقول: «إنَّ شاء الله».

ويصف الدكتور العنيزي ذلك؛ فيقول: «جاء الطليان بالسيد عمر المختار إلى قاعة الجلسة مكبلًا بالحديد، وحوله الحرس من كلِّ جانب.. وكان مكاني في القاعة بجوار السيد عمر وأحضر الطليان أحد التراجمة الرسميين واسمه (نصرت هرمس)، فلما افتتحت الجلسة وبدأ استجواب السيد، بلغ التأثر بالترجمان حدًّا جعله لا يستطيع إخفاء تأثره، وظهر عليه الارتباك، فأمر رئيس المحكمة باستبعاده وإحضار ترجمان آخر، فوقع الاختيار على أحد اليهود، وهو (لمبروزو)، من بين الحاضرين في الجلسة، وقام لمبروزو بدور المترجم، وكان السيد عمر -رحمه الله- جريئًا صريحًا يصحح للمحكمة بعض الوقائع، خصوصًا حادث الطيارين الإيطاليين أوبر وبياتي»[1].

وبعد استجواب السيد ومناقشته وقف المدعي العام بيدندو، فطلب الحكم على السيد بالإعدام.

وعندما جاء دور المحامي المعهود إليه بالدفاع عن السيد عمر، وكان ضابطًا إيطاليًا يدعى الكابتن (لونتانو)، وقف وقال: «كجندي لا أتردد البتة إذا وقعت عيناي على عمر المختار في ميدان القتال، في إطلاق الرصاص عليه وقتله وأفعل ذلك كإيطالي أمقته وأكرهه، ولكنني وقد كلفت الدفاع عنه؛ فإني أطلب حكمًا هو في نظري أشد هولًا من الإعدام نفسه، وأقصد بذلك الحكم عليه بالسجن مدى الحياة نظرًا لكبر سنه وشيخوخته».

وعندئذٍ تدخل المدعي العمومي وقطع الحديث على المحامي، وطلب من رئيس المحكمة أن يمنعه من إتمام مرافعته مستندًا في طلبه هذا إلى أن الدفاع خرج عن الموضوع، وليس من حقه أن يتكلم عن كبر سن عمر المختار وشيخوخته ووافقت المحكمة[2]، أمر القاضي المحامي بألا يخرج عن الموضوع ويتكلم بإيجاز، وهنا تكلم المحامي بحدة وقال: «إنَّ عمر المختار الذي هو أمامكم وليد هذه الأرض قبل وجودكم فيها، ويعتبر كل من

(١) انظر: حياة عمر المختار، ص١٥٣-١٥٥.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص١٥٥.

احتلها عنوة عدو له، ومن حقه أن يقاومه بكلِّ ما يملك من قوة حتى يخرجه منها أو يهلك دونها، هذا حق أعطته له الطبيعة والإنسانية».

وهنا كثر الصياح من الحاضرين بإخراج المحامي وإصدار الحكم على المتهم الذي طالب به المدعي العام، ولكن المحامي استمر قائلًا: «العدالة الحقة لا تخضع لأي سلطان ولا لأية غوغاء، وإنما يجب أن تنبع من ضميرنا وإنسانيتنا».

وهنا قامت الفوضى خارج المحكمة، وقام المدعي العام محتجًا على المحامي، ولكن المحامي استمر في دفاعه غير مبالٍ بكلِّ هذا، بل حذَّر القاضي أن يحكم ضميره قائلًا: «إنَّ هذا المتهم عمر المختار الذي انتدبت من سوء حظي أن أدافع عنه شيخ هرم حنت كاهله السنون، وماذا بقي له من العمر بعد ما أتم السبعين سنة، وإني أطلب من عدالة المحكمة أن تكون رحيمة من (تحقيق) العقوبة عنه؛ لأنه صاحب حق ولا يضر العدالة إذا أنصفته بحكم أخف، وإنني أحذِّر عدالة محكمتكم حكم التاريخ؛ لأنه لا يرحم فهو عجلة تدور وتسجِّل كل ما يحدث في هذا العالم المضطرب».

وهنا كثر الضجيج في الخارج ضد المحامي ودفاعه، ولكن المحامي استمر في دفاعه قائلًا: «سيدي القاضي، حضرات المستشارين، لقد حذَّرت المحكمة من مغبة العالم الإنساني والتاريخ، وليس لدى ما أضيفه إلا طلب تخفيف الحكم على هذا الرجل صاحب الحق من الذود عن أرضه ودينه وشكرًا».

وعندما قام النائب العام لمواصلة احتجاجه قاطعه القاضي برفع الجلسة للمداولة، وبعد مضي فترة قصيرة من الانتظار دخل القاضي والمستشاران والمدعي العام، بينما المحامي لم يحضر لتلاوة حكم القاضي بإعدام عمر المختار شنقًا حتى الموت، وعندما ترجم الحكم إلى عمر المختار قهقه بكلِّ شجاعة قائلًا: «الحكم حكم الله لا حكمكم المزيف، إنا لله وإنا إليه راجعون!!»[1].

وأراد رئيس المحكمة أن يعرف ما قاله السيد عمر.. فسأل الترجمان أن ينقل إليه عبارته، ففعل، وعندئذٍ بدا التأثير العميق على وجوه الإيطاليين أنفسهم الذين حضروا

---

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٨٦، ٢٨٧.

هذه المحكمة الصورية، وأظهروا إعجابهم لشجاعة شيخ المجاهدين بليبيا الحبيبة وبسالته في آنٍ واحدٍ.

وأما المحاكمة؛ فقد استغرقت من بدئها إلى نهايتها ساعة واحدة وخمس عشرة دقيقة فحسب، من الساعة الخامسة مساءً إلى الساعة السادسة والربع، وكذلك قضت إرادة الله تعالى أن يتحكم الطليان في مصير البطل؛ لتتم الإرادة الإلهية وتمضي الحكمة الربانية[١].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

سابعًا: إعدام شيخ الجهاد في بلادنا الحبيبة

وفي يوم ١٦ سبتمبر من صباح يوم الأربعاء من سنة ١٩٣١م عند الساعة التاسعة صباحًا نفَّذ الطليان في (سلوق) جنوب مدينة بنغازي حكم الإعدام شنقًا في شيخ الجهاد وأسد الجبل الأخضر بعد جهاد طويل ومرير.

ودفعت الخسة بالإيطاليين أن يفعلوا عجبًا في تاريخ الشعوب، وذلك أنهم حرصوا على أن يجمعوا حشدًا عظيمًا لمشاهدة التنفيذ، فأرغموا أعيان بنغازي وعددًا كبيرًا من الأهالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ؛ فحضر ما لا يقل عن عشرين ألف نسمة، على حد قول غراسياني في كتاب (برقة الهادئة)[٢].

ويقول الدكتور العنيزي: «لقد أرغم الطليان الأهالي والأعيان المعتقلين في معسكرات الاعتقال والنازلين في بنغازي على حضور المحاكمة وحضور التنفيذ، وكنت أحد أولئك الذين أرغمهم الطليان على المحاكمة، ولكني وقد استبد بي الحزن شأني في ذلك شأن سائر أبناء جلدتي، لم أكن أستطيع رؤية البطل المجاهد على حبل المشنقة،

(١) انظر: حياة عمر المختار، ص١٥٦، ١٥٧.
(٢) انظر: برقة الهادئة، ص٢٨٨.

فمرضت ولم يعفني الطليان من حضور التنفيذ في ذلك اليوم المشئوم، إلا عندما تيقنوا من مرضي وعجزي عن الحضور.

ويا لها من ساعة رهيبة تلك التي سار المختار فيها بقدم ثابتة وشجاعة نادرة وهو ينطق بالشهادتين إلى حبل المشنقة، وقد ظل المختار يردد الشهادتين: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد رسول الله».

لقد كان الشيخ الجليل يتهلهل وجهه استبشارًا بالشهادة وارتياحًا لقضاء الله وقدره، وبمجرد وصوله إلى موقع المشنقة أخذت الطائرات تحلق في الفضاء فوق ساحة الإعدام على انخفاض وبصوت مدوي لمنع الأهالي من الاستماع إلى عمر المختار؛ إذ ربما يتحدَّث إليهم أو يقول كلامًا يسمعونه، وصعد حبل المشنقة في ثبات وهدوء.

وهناك أعمل فيه الجلاد حبل المظالم، فصعدت روحه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية، هذا، وكان الجميع من أولئك الذين جاءوا يساقون إلى هذا المشهد الرهيب ينظرون إلى السيد عمر، وهو يسير إلى المشنقة بخطى ثابتة، وكانت يداه مكبلتين بالحديد وعلى ثغره ابتسامة راضية، تلك الابتسامة التي كانت بمثابة التحية الأخيرة لأبناء وطنه، وقد سمعه بعض المقربين منه، ومنهم (ليبيون) أنه صعد سلالم المشنقة وهو يؤذن بصوت هادئ آذان الصلاة، وكان أحد الموظفين الليبيين من أقرب الحاضرين إليه، فسمعه عندما وضع الجلاد حبل المشنقة في عنقه يقول:

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

لقد استجاب الله دعاء الشيخ الجليل، وجعل موته في سبيل عقيدته ودينه ووطنه، لقد كان يقول: «اللهم اجعل موتي في سبيل هذه القضية المباركة»[١].

ويقول شاعر القطرين خليل مطران:

أَبَيْتَ وَالسَّيْفُ يَعْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ... وَجُدْتَ بِالرُّوحِ جُودَ الحُرِّ إنْ ضِيمَا

للهِ يَا عُمَرُ المُخْتَارُ حِكْمَتُهُ ... فِي أنْ تُلاقِيَ مَا لاقَيْتَ مَظْلُومَا

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٦٠، ١٥٩.

إِنْ يَقْتُلُـوكَ فَـمَا إِنْ عَجَّلُـوا أَجَـلًا قَـدْ كَـانَ مُـذْ كُنْـتَ مَقْـدُورًا وَمَحْتُومَـا

ولقد رثاه الشعراء وتكلَّم في تأبينه الأدباء والكتاب، ولو تتبعنا ذلك لوجدناها أكثر من مجلد[(١)].

ونختم استشهاد عمر المختار -رحمه الله- بقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥-١٤٦].

ومن سيرة عمر المختار العطرة نستخلص دروسًا وعبرًا تفيدنا كثيرًا في حياتنا المعاصرة ليس عمر المختار -رحمه الله- أول مَنْ جاهد، ولا أول مَن استشهد، ولكن كان حاله كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ومفتاح شخصيته الفذة أنه آمن بالله، واستقرت معانيه في قلبه، فأصبح لا يخشى إلا الله، وهذا الصنف من المسلمين هو أقوى ما عرفته البشرية، وهو الإنسان الحر في أعلى معاني الحرية.

جرَّد قلبه من الأوهام ومن الشركيات والضلال ومن الشبهات والشهوات، وخلص قلبه من كلِّ ظلمة تحيل بينه وبين دخول التوحيد الصحيح إليه، كان كثير المراقبة لله، ومن هنا كان شديد الخوف من الله، يعلم أنه شديد العقاب، وخوفه من الله جعله أهلًا لتوفيق الله، ولذلك كان راسخًا كالجبل الأشم[(٢)].

فالفريد في سيرته أنه أحيا شيئًا كاد يندثر.. أحيا معاني الإيمان التي كان الناس قد بدءوا ينصرفون عنها، إنه بنيان أسس على التقوى، فعاش مباركًا في حياته وفي مماته.

والعبرة الثانية أنه كان داعيًا إلى الله بإذنه، تربى على أيدي دعاة السنوسية، فلما اكتمل

---

(١) انظر: إبراهيم سالم بن عامر مترجم برقة الهادئة، ص٢٨٩.

(٢) انظر: حياة عمر المختار، ص١٩٠.

وترعرع، أدّى الرسالة وبلّغ الأمانة وأنذر وبشر، و« خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

والعبرة الأخرى أنه كان على فهم صحيح لدينه، يأخذ كلًا لا يتجزأ، فلا هو بالتدين المنحرف، ولا هو بالتدين البعيد عن جوهر الدين، وإنما هو رجل مؤمن، يعلم أن الإسلام لا يصح أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه، وإنما عليه أن يعمل به كله.

وكان في حرارة الشباب وحيويتهم رغم شيخوخته، وتلك طبيعية المقاتلين في سبيل الله، الذين يخشون الله ولا يخشون أحدًا غيره.

والعبرة الأخرى أنه لم يسع للشهرة؛ لأن المخلصين لا يبحثون عن الشهرة، وإنما يبحثون عن رضا الله سبحانه وتعالى[1]، ولذلك جعل الله له ذكرًا في الدنيا، ونسأل الله أن يتغمده برحمته في الآخرة.

إنَّ أعداءه الأوروبيين أعجبتهم سيرته البطولية والكفاحية والجهادية؛ فهذه صحيفة التايمز البريطانية في مقال نشرته في ١٧ سبتمبر سنة ١٩٣١م تحت عنوان (نصر إيطالي): «حقّق الإيطاليون انتصارًا خطيرًا ونجاحًا حاسمًا في حملتهم على المتمردين السنوسيين في برقة، فلقد أسروا وأعدموا الرجل الرهيب عمر المختار شيخ القبيلة العنيف الضاري...»، ثم تستمر الصحيفة حتى تقول: «ومن المحتمل جدًّا أن مصيره سيشل مقاومة بقية الثوار، والمختار الذي لم يقبل أي منحة مالية من إيطاليا، وأنفق كل ما عنده في سبيل الجهاد، وعاش على ما كان يقدّمه له اتباعه، واعتبر الاتفاقيات مع الكفار مجرد قصاصات ورق، كان محل إعجاب لحماسته وإخلاصه الديني.. إنه كان مرموقًا لشجاعته»[2].

وقد وصفه أحد الإيطاليين قائلًا: «كان عمر المختار مخلصًا وذكيًا، وكان عقل الثورة وقلبها ببرقة».

وقال آخر: «كان إنجازه رائعًا، فقد حارب إيطاليا الفاشستية تسع سنوات من حرب فدائية لم تكن ضعيفة في ذاتها، وكان التحدي والتضحية والاستشهاد بالنفس عند عمر

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٩٣، ١٩٤.

(٢) من مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ربيع الثاني، ١٤٠٩هـ، ص٨٢.

المختار وأتباعه شيئًا نبيلًا»[(١)].

ونحن نقول:

وَمَليحَــةٍ شَــهِدَتْ لَهَــا ضَرّاتهــا   والفضــلُ مــا شَــهِدَتْ بــه الأعــداءُ

لقد كانت حياة عمر المختار شيخ المجاهدين في الجبل الأخضر بليبيا مكرسة كلها للعلم والدعوة وتربية الناس على الإسلام والجهاد في سبيل الله، وكان من رواد الحركة السنوسية؛ فقضى حياته حين نادى منادي الجهاد معتليًا صهوة جواده ممسكًا سلاحه، لم يهادن ولم يستسلم، بل قارع أعداء دينه مقارعة الند للند رغم قلة الإمكانات، ورغم عدم التكافؤ في العدد والعدة، ولكنه استعلاء الإيمان وقوة اليقين، الذي ازداد صلابة وعمقًا في ميادين الجهاد وساحات المعارك.

إنَّ جهاد عمر المختار -رحمه الله- سيظل معلمًا بارزًا في تاريخ ليبيا خاصة وتاريخ الأمة الإسلامية عامة، وسيظل دليلًا على أن الإسلام صنع ولا يزال نماذج عظيمة من البطولات على مر العصور، وعلى أن العطاء الحقيقي إنما هو عطاء الإيمان[(٢)].

إنَّ الشيخ الجليل عمر المختار -رحمه الله- مدرسة تستحق الدراسة والبحث في جوانب متعددة في شخصيته العلمية والدعوية والتربوية والجهادية، ويعلم الله ما أعطيت الشيخ حقه، ولا حتى بعض حقه وأحس إحساسًا عميقًا صادقًا في قرارة نفسي أنه أعظم مما كتبت وأجل مما توهمت وأفضل من عايشت من سيرة أبطال الجهاد في ليبيا الحبيبة؛ فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان، وعلى إخوانه الميامين الكرام، ونفعنا الله بسيرته الزكية العطرة النقية.

وهكذا -يا أخي الكريم- يصنع الإسلام من اتباعه في ميادين النزال وساحات القتال، وكذلك عند الوقوف أمام الطغاة والجلادة الظلمة؛ لأن العقيدة تحركه، ورعاية الله تحفه، وإن هذه الوقفات الخالدة من سيرة شيخ الجهاد في ليبيا حري بنا أن نكتبها

(١) انظر: جون رايت تاريخ ليبيا، ص١٥٨.

(٢) من مجلة البيان، العدد الخامس عشر، ص٨٢، ٨٣.

بحروف من ذهب، ونعلّمها للأجيال، ونربّي عليها الأشبال لغد مشرق مجيد، قد بدأت بوادره تلوح في عنان السماء ومظاهره متجسدة في رجوع شعوب المسلمين لدينها مع ما يحف هذا الرجوع من مخاطر عديدة من قبل اليهود والنصارى والملاحدة والحكام الظلمة، وأنى لهم أن يطفئوا نور الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

فما علينا إلا أن نستعين بالله في تحقيق وتطبيق دينه على نفوسنا وأسرنا ومن حولنا ثم على الناس أجمعين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

ثامنًا: بعض ما قيل في تأبين الشيخ عمر المختار من الشعر

أ- قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

رَكَزوا رُفاتَكَ في الرِّمالِ لِواءَ ... يَستَنهِضُ الوادي صَباحَ مَساءَ

يا وَيحَهُم نَصَبوا مَنارًا مِن دَمٍ ... توحي إِلى جيلِ الغَدِ البَغضاءَ

ما ضَرَّ لَو جَعَلوا العَلاقَةَ في غَدٍ ... بَينَ الشُّعوبِ مَوَدَّةً وَإِخاءَ

جُرحٌ يَصيحُ عَلى المَدى وَضَحِيَّةٌ ... تَتَلَمَّسُ الحُرِّيَّةَ الحَمراءَ

يا أَيُّها السَيفُ المُجَرَّدُ بِالفَلا ... يَكسو السُّيوفَ عَلى الزَّمانِ مَضاءَ

تِلكَ الصَّحاري غِمدُ كُلِّ مُهَنَّدٍ ... أَبلى فَأَحسَنَ في العَدُوِّ بَلاءَ

وَقُبورُ مَوتى مِن شَبابِ أُمَيَّةٍ ... وَكُهولِهِم لَم يَبرَحوا أَحياءَ

لَو لاذَ بِالجَوزاءِ مِنهُم مَعقِلٌ ... دَخَلوا عَلى أَبراجِها الجَوزاءَ

فَتَحوا الشَّمالَ سُهولَهُ وَجِبالَهُ ... وَتَوَغَّلوا فَاستَعمَروا الخَضراءَ

وَبَنَوا حَضارَتَهم فَطاوَلَ رُكنُها دارَ السَّلامِ وَجِلَّقَ الشَّمّاءَ

خُيِّرتَ فَاِختَرتَ المَبيتَ عَلى الطَّوى لَم تَبنِ جاهًا أَو تَلُمَّ ثَراءَ

إِنَّ البُطولَةَ أَن تَموتَ مِنَ الظَّما لَيسَ البُطولَةُ أَن تَعُبَّ الماءَ

إِفريقيا مَهدُ الأُسودِ وَلَحدُها ضَجَّت عَلَيكَ أَراجِلًا وَنِساءَ

وَالمُسلِمونَ عَلى اِختِلافِ دِيارِهِم لا يَملُكونَ مَعَ المُصابِ عَزاءَ

وَالجاهِلِيَّةُ مِن وَراءِ قُبورِهِم يَبكونَ زيدَ الخَيلِ وَالفَلحاءَ

في ذِمَّةِ اللهِ الكَريمِ وَحِفظِهِ جَسَدٌ بِبُرقَةَ وُسِّدَ الصَّحراءَ

لَم تُبقِ مِنهُ رَحى الوَقائِعِ أَعظُمًا تَبلى وَلَم تُبقِ الرِّماحُ دِماءَ

كَرُفاتِ نَسرٍ أَو بَقِيَّةِ ضَيغَمٍ باتا وَراءَ السافِياتِ هَباءَ

بَطَلُ البَداوَةِ لَم يَكُن يَغزو عَلى تَنَكٍ وَلَم يَكُ يَركَبُ الأَجواءَ

لَكِن أَخو خَيلٍ حَمى صَهَواتِها وَأَدارَ مِن أَعرافِها الهَيجاءَ

لَبّى قَضاءَ الأَرضِ أَمسِ بِمُهجَةٍ لَم تَخشَ إِلّا لِلسَّماءِ قَضاءَ

وافاهُ مَرفوعَ الجَبينِ كَأَنَّهُ سُقراطُ جَرَّ إِلى القُضاةِ رِداءَ

شَيخٌ تَمالَكَ سِنَّهُ لَم يَنفَجِر كَالطِفلِ مِن خَوفِ العِقابِ بُكاءَ

وَأَخو أُمورٍ عاشَ في سَرّائِها فَتَغَيَّرَت فَتَوَقَّعَ الضَّرّاءَ

الأُسدُ تَزأَرُ في الحَديدِ وَلَن تَرى في السِجنِ ضِرغامًا بَكى اِستِخذاءَ

وَأَتى الأَسيرُ يَجُرُّ ثِقلَ حَديدِهِ أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقطاءَ

عَضَّت بِساقَيهِ القُيودُ فَلَم يَنُؤ وَمَشَت بِهَيكَلِهِ السُّنونَ فَناءَ

تِسعونَ لَو رَكِبَت مَناكِبَ شاهِقٍ لَتَرَجَّلَت هَضَباتُهُ إِعياءَ

خَفِيَت عَنِ القاضي وَفاتَ نَصيبُها مِن رِفقِ جُندٍ قادَةً نُبَلاءَ

وَالسُّنُّ تَعصِفُ كُلَّ قَلبِ مُهَذَّبٍ عَرَفَ الجُدودَ وَأَدرَكَ الآباءَ

دَفَعوا إِلى الجَلّادِ أَغلَبَ ماجِدًا يَأسو الجِراحَ وَيُعتِقُ الأُسَراءَ

وَيُشاطِرُ الأَقرانَ ذُخرَ سِلاحِهِ وَيَصُفُّ حَولَ خِوانِهِ الأَعداءَ
وَتَخَيَّروا الحَبلَ المَهينَ مَنِيَّةً لِلَّيثِ يَلفِظُ حَولَهُ الحَوباءَ
حَرَموا المَماتَ عَلى الصَوارِمِ وَالقَنا مَن كانَ يُعطي الطَعنَةَ النَجلاءَ
إِنّي رَأَيتُ يَدَ الحَضارَةِ أولِعَت بِالحَقِّ هَدماً تارَةً وَبِناءَ
شَرَعَت حُقوقَ النّاسِ في أَوطانِهِم إِلّا أُباةَ الضَيمِ وَالضُعَفاءَ
يا أَيُّها الشَعبُ القَريبُ أَسامِعٌ فَأَصوغُ في عُمَرَ الشَهيدِ رِثاءَ
أَم أَلجَمَت فاكَ الخُطوبُ وَحَرَّمَت أُذنَيكَ حينَ تُخاطَبُ الإِصغاءَ
ذَهَبَ الزَعيمُ وَأَنتَ باقٍ خالِدٌ فَاِنقُد رِجالَكَ وَاِختَرِ الزُعَماءَ
وَأَرِح شُيوخَكَ مِن تَكاليفِ الوَغى وَاِحمِل عَلى فِتيانِكَ الأَعباءَ[1]

ب- قال الأستاذ نعمان عبد الوهاب ناظر مدرسة الملوم بمغاغة بمصر، وذلك بمناسبة أول ذكرى للشهيد قام بها الليبيون أثناء الحرب العالمية الثانية:

ذكرى بها ألم النفوس دفين وأسى له صلد الصخور يلين
وسقام شعب في رفاة ضحية ونداء قطر بالفلاة سجين
ودموع ثكلى من دم أذراعها (سفاح برقة) والرحاب أمين
صاحت على بطل يساق مكبلا إذ قال: عرضي، والحمى، والدين
فارتاع شعب أعزل لكنما في كل ركن في البلاد عرين
من واحت الجغبوب قامت أسرة بالله يربطها هدى ويقين
بيت الأمارة والمهابة والتقى والعزم ما جدت هناك شئون
فاصطفت الأبطال تحت لوائها وتجرد الهندي والمسنون
والسيد المهدي يذكى نارها بالحزم والأقدام ضل يبين
يستنهض الفرسان في ساحتها والشّعب منقاد له ورهين

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد شوقي (٢/ ١٨، ١٩).

يستعذبون الموت في إرضائها في حب برقة يضحك المطعون
عشرون عامًا في الجهاد بهمة لم تكتحل فيها المنام جفون
صبر الألي فتحوا ممالك قيصر وتسوروا الأيوان وهو حصين
لو كان للإسلام سالف عهده والجار للجار الضعيف معين
ما بات أبطال الجهاد على الطوى يستنجدون الشرق وهو ضنين
يا لهف نفسي كيف سار بغله من كان للسرج الرهيب يزين
عمر بن مختار الشهيد ومن له في كل قلب لوعة وحنين
فختامه يحكي نهاية (جعفر) حتى حلى لي فيهما التأبين
عيناه قد رأت الحصان مجندلا والجو أطبق والرصاص هتون
والسّيف في اليمنى وإن قطعت فما يلقيه حتى أن يحين الحين
من كان لله القدير جهاده والحق يعلم أنه المغبون
لا ينثني عن عزمه والموت في حبل المشانق جاثم مرهون
ما ردّ إلا حيث قال قضاتهم نعم، وفي الصوت الجهور رنين
فاضت على حبل المظالم روحه والله قدر ما عليه تكون
دار السنوسي لقنت أشبالها موت المعزة بالكماة قمين
فالصبر يا شعب الجهاد فضيلة يا مرسل الشكوى وأنت حزين
لا زال رب الدار ليثًا رابضًا أن غاب عنها ليس عنك يبين
لا زال إدريس الوفي بعهدكم والحر للعهد النزيه يصون
لا زال يسعى للخلاص بفتية منكم، وقد سهرت عليه عيون[١]

ج- وقال أحد الشعراء الليبيين الأستاذ أبو الخير الطرابلسي:

دك طود الجهاد باسم السلام وثوى الحر في مهاوي الظلام

---

(١) انظر: عمر المختار للأشهب، ص١٨٧، ١٨٨.

وأبيدت معالم الحق لما … زلزل الأمن في ربوع الأنام

وأميتت مبادئ الدين كفرا … وأزيلت منارة الإسلام

وأقيمت مجازر الأثم والبغـ … ـي وزلت مواطئ الأقدام

وتحامت عناصر الظلم والعدوا … ن، فهدت دعائم الأقدام

ليت تلك السماء تحكي فتروي … كيف حيكت مؤامرات اللئام

ليت هذا الأديم ينشق توا … فيواري مخلفات الطغام

أيهذا الشهيد! ما أنت إلا … طارف العز.. تالد المجد.. سامي

أيهذا الشهيد! ما أنت إلا … قدوة لجيش.. في اللواء الأمامي

خصك الله بالعزيمة والصبـ … ـر وخص الطغاة بالأحجام

خصك الله بالعقيدة والطهـ … ـر وخص الدناة بالآثام

أمم الأرض.. طأطأت في احترام … رأسها يا جلال هذا المقام

أمم الأرض... قلدتهم هوانا … وازدراء بهم أحط وسام

أيهذا الشهيد قدمت شنقًا … بيد الغدر ذقت كأس الحمام

فتوارت غزالة الصبح حزنا … واختفى البدر في ليالي التمام

خالد أنت.. رغم أنف المنايا … (عمر) أنت.. والردى تتعامى

أن تناسوك فالثمانون عامًا … ليس ينسى على مدى الأعوام

كللت كاهليك بالعزم تاجًا … فتوثبت قاهرًا في اعتصام

ما تحدوك.. إنما قد تحدا … ك القضا.. بالردى ونصل الختام

إنهم ألبسوك حلة فخر … ثم أعلوك فوق أسمى مقام

طوقوا جيدك الأغر وغطوا … جسمك الحر خيفة الإيلام

سنة الغدر رحمة الذئب بالشا … ة وخبث الجبان في الإيهام

أرجحوا جسمك الضعيف فضجت … في الأعالي ملائك السلام

وعــووا كالــذئاب هيــا تعــالوا فاشــهدوا مصرع الــزعيم الهــمام
فــأبوا ثــم سـيق قهـرًا وجلــدًا مــن تــأبى حضــور ملقــى الــزوام
ثــم دقــوا الطبـول للمـوت تـدوي صــارخات عــلى العــدا كــل عــام
لعنـــة الله.. لعنـــة الحـــق صـــبي بشـــواظ عـــلى الكـــوافر جــامي
لعنـة الكهـل.. لعنـة الطفـل والخـد ر ولعنـــة الثـــاكلات الـــدوامي
لعنــات عــلى الجنــاة الســفالى دائــمات إلى نشـــور العظـــام
يــا أخــي! عـبرة الخطـب هاجـت فأفاضــت لنــا الــدموع الهــوامي
ولــغ القــوم في الــدما فأثــاروا ديــدن الحقــد مبعــث الانتقــام
ردد اللحــن هائجًــا مائجًــا مســـ ـتفيض الشعور صـاحب الأنغـام
يــا جهـاد الشـيوخ يـا فـداء الشبا ب يــا حثيــث النســاء للإقحــام
يـــا دعـــاة الســـلام صـمتًا فإنـــا قـــد شـــهدنا مفاصـــل الإعـــدام
قــد شـهدنا قـذائف المـوت تعـوي هاويـــات عـــلى رءوس الشُّـــهام
فشــهيد يميــل فــوق شــهيد ودمــــاء تفـــور فـــوق رغـــام
يـــا ريـــاح الفنـــاء! هبـــي وذري في المــآقي قـذى القنــا والســهام
وارقصي ثـورتي وميـدي جنونـــا واطـــربي يـــا فتـــوتي! لـــن تضــامي
وتمطــى عزيمتــي للعـــلا واستـــ ـزري ناطح السحب شاهق الآكـام
رب شــعب عــن المعــالي قعيــد خانــه العــزم بــالوغى والســقام
ورمتـــه الخطـــوب لمـــا تـــوانى وارتضى بــــالقيود والأجـــــام
فعلــت مــن ثــراه صـيحات جــد داعيـــــات إلى البنـــــا والقيـــــام
ونمــت فيــه بنتــة النهضــة الغضـــ ـــي عــلى مصرع الأبنــاء المســام
وتقـــوت ســـواعد الـــنشء لمـــا صـــقلتها يـــد العرمـــى بالنظـــام
أمــة المجــد! إنــه المجــد صــعب والخنــى مســتسر قــد استضــام

سائلي الأمس.. كيف أنا ولدنا ونشأنا في أحلك الأيام
ولبثنا سنين جهلًا عبيدًا واستتمنا لباطل الأحلام
وقعدنا عن النهوض ففات الركب وتهنا بمهمة الأوهام
فالمضاء المضاء يا فتية النصر! فقد طال.. طال عهد المنام
والبدار البدار يا أمة الفخر! فحسب الحصاد نيل المرام

د- وقال الأستاذ حسين الغناي أحد شعراء الشباب الليبيين:

يبيد الزمان ومدته وتفنى الخلائق جدته
وتطوى الدهور سجل الحياة وتبقى من المرء سيرته
ومن أخلد الذكر في العالمين مضاء الفتى وعزيمته
ووقفته عند قرع السلاح تذود عن الحق مهجته
إذا عجمته شداد الخطوب تدرع بالصبر مهجته
سواء لديه اعوجاج الزمان كذا عدله واستقامته
ومن أبرز الذائدين فتى إلى أرض برقة نسبته
من العرب الشوس والفاتحين جبلته وأرومته
إذا عد (عمر) و(ابن الوليد) و (عقبة) ثم صحابته
وأمثالهم نخبة المسلمين رجال الفتوح وقادته
فـ(مختار) برقة ذاك الأبي الذي طافت الأرض شهرته
لصنو لهم في قياس الفحول وتمتاز عنهم صلابته
عقيدته في الحياة الجهاد لتحفظ للشعب حرمته
وتلقاه في اليأس والمكرمات له فضله ومهابته
إذا اتصفت بالدهاء الرجال وبانت من العدل وجهته
فقول الكتاب له مبدأ وصوت السلاح سياسته
أبى شرفًا أن يفك الركاب وأن تلقى السيف راحته

ومـا زال في السرج شـاكي السـلاح	توشـــــحه بندقيتـــــه
يصــــادم في طلعـــة الهـــاجمين	وأول طلـــــق رصاصــــته
ويغـــزو عـــلى القـــوم في دارهـــم	فـــتفضي إلى الــنصر غزوتــه
إلى أن قضى تحـت حكـم القضــاء	شــــهيدًا فكانــــت نهايتـــه
لـئن مـات شـهم الـوغى عمـر	ولمـــا تحقـــق رســـالته
فقـد أوجـدت في شـعور العروبـة	نـــورًا يشـــع عقيدتـــه
يســير بهـــا في دروب الظـــلام	فتهــــدي إلى الحــــق لمعتــــه
كـــما علـــم الـــروم أن الجهـــاد	منــــى العـــربي وبغيتــــه
وعلمهــــم أن وكـــر النســـور	حـــرام عـــلى البـــوم وطأتـــه
حـــديثك يـــا عمـــر الخـــيرين	تغـــذى النفـــوس روايتــــه
وذكـــرك بـــاق مـــع الخالـــدين	بـــه تختــتم المجــد صــفحته[1]

تاسعًا: آخر وثيقة من أحمد الشريف وصلت للمجاهدين في ليبيا

وكانت آخر وثيقة أرسلها أحمد الشريف ردًا على رسالة المجاهد الكبير يوسف بورحيل الذي تولى الأمر مؤقتًا بعد استشهاد عمر المختار -رحمه الله تعالى، وقد أعلم في رسالته أحمد الشريف باستشهاد عمر المختار، وطلب منه أن يعيِّن مَن يقوم بهذا الدور العظيم.

نص الرسالة التي بعث بها أحمد الشريف -رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من عبد ربه سبحانه، خادم الإسلام، أحمد الشريف السنوسي،

إلى حضرة الفاضل المحترم، والجليل المفخم، المجاهد الصادق، واللبيب الحاذق، قائم مقام دور العواقير ولدنا الشيخ عبد الحميد العبار، وكافة أولادنا العواقير حفظهم الله ورعاهم وحرسهم وحماهم آمين آمين.

---

(١) انظر: عمر المختار، ص١٩٠، ١٩١.

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ومغفرته ومرضاته وتحياته ورضوانه وعميم فضله وإحسانه، وبعد؛ فالمرجو من الله تعالى أن تكونوا جميعًا على أيسر الأحوال محفوظين بالله ومنصورين به، وإننا لن نغفل عنكم وقت من الأوقات من الدعاء لكم عند بيت الله الحرام، وفي حضرة مولانا رسول الله -عليه الصلاة والسلام، وعلى الله القبول، إنه أكرم مسئول، وخير مأمول هذا، وقد بلغنا ما أزعجنا وكدرنا غاية الكدر، وهو استشهاد حضرة النائب العام سيدي عمر المختار -رحمه الله ورضي الله عنه، وجعل جنة الفردوس مسكنه ومحله، وجزاه الله عنا وعن الإسلام أحسن الجزاء، فإنه كان عاملًا صادقًا ناصحًا، وإننا لم نتكدر على نيله للشهادة، بل نحمد الله على ذلك ولا نقول: إنه مات، بل إنه حي لقول الله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وإنما كدرنا فقدانه من بينكم وغيابه عنكم، ولكن هذا أمر الله الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يمكننا إلا تسليمنا لله ورجوعنا إليه، ولا نقول إلا ما يقول الصابرون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

نعم استشهد سيدي عمر المختار، ولكنه أبقى العمل الطيب والذكر الحسن إلى يوم القيامة؛ فهذا ليس بميت ولن يموت أبدًا، ما دامت الدنيا.. إنه شهيد، والشهيد ليس بميت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، فالله يا أولادي في التمسك وإياكم واليأس، إياكم والقنوط، إياكم وأقاويل الناس الفاسدة، فجدوا واجتهدوا كما كنتم، واجعلوا أعمالكم لله؛ لأنه لنا ولا لغيرنا لأن من قاتل لله، فالله حي باقٍ، ومن قاتل لغير الله فعمله لا يفيده شيئًا، واعلموا أن الله معكم، ولن يتركم أعمالكم، فاصبروا وصابروا، واعلموا أن العاقبة للمتقين، وأن الله مخزي الكافرين، وما ترونه من الأهوال، فإنه والله ثم والله زائل عن قريب وسترون ما يسركم دنيا وأخرى، ففي الدنيا سترون بحول الله العز والنصر والفتح الذي لا يخطر لكم على بال، وفي الآخرة رضاء الله ورسوله والنعيم المقيم، فأنتم في الخير أحياءً وأمواتًا، وهانحن نوَّبنا عنا عليكم حضرة أخيكم المجاهد الغيور الصادق، ولدنا الشيخ يوسف بورحيل، فإنكم ستلقونه بعون الله وقوته، مثل السيد عمر

وأكثر، ونحن ما قدمناه إلا بتقديم سيدي عمر له في حياته، وامتثلوا أمره واسمعوا كلامه، وكونوا له عونًا معينًا، ومن خالفه منكم فلا يلومن إلا نفسه، ومن تبعه وامتثل أمره، فهو الذي منا وعلينا، وولدنا الشيخ يوسف المذكور هو النائب عنا عمومًا، فلا تروه إلا بالعين التي تروننا بها، وبذلك يتم بالله أمركم، وتجتمع كلمتكم وتقهرون عدوكم، وإياكم ثم إياكم والمخالفة والنزاع، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[الأنفال: ٤٦].

واعلموا -يا أولادي- أن العدو خيَّبه الله ساعٍ بكلِّ جهده في القضاء عليكم في هذه المدة القريبة، لا بلغه الله مناه؛ لأنه بعد مدة قليلة يقوم معه حرب عظيم يشغله عنكم وهو مع الفرنسيين، والدول الأخرى، فعند ذلك لا يقدر على دوام القتال معكم، والحرب قريب النشوب، فجدوا في عملكم، واصبروا وأبشروا بالنصر والفتح، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ... الخ﴾[يوسف: ١١٠].

ولا نشك -يا أولادي- أن الله منجز وعده؛ لأن الله لا يخلف الميعاد، وإني والله ثم والله ما يمنعني من الوصول إليكم إلا عدم الطريق، ولكن بحول الله، لا زلت مجتهدًا بكلِّ جهدي في وصولي إليكم، وعن قريب يتم ذلك بحول الله وقوته، هذا وسلموا منا على عموم أولادنا المجاهدين والبارئ يحفظكم وينصركم ويجمعنا بكم عن قريب»[1].

١٦ جمادى الثاني سنة ١٣٥٠هـ

عاشرًا: إيطاليا تحاول أن تستفيد بعد مقتل عمر المختار

يقول غراسياني عن عمر المختار في كتابه (برقة الهادئة): «إنَّ خبر القبض على عمر المختار وإعدامه سرى في كلِّ مكان وفي الأوساط المحلية بين الأهالي والخاضعين لسلطاتنا وبين الثوار الخارجين عن طاعتنا والمهاجرين في مصر وفي كل البلدان من المشرق إلى المغرب.. كلها تأثرت من هذا الحادث الجلل، وإعدام عمر المختار، ولكي ننتهز هذه الفرصة في هذا الظرف الدقيق من أجل أثارة الفوضى بين القادة الذين خلفوا عمر المختار

(١) انظر: مجلة الإنقاذ، العدد ٣٩، ١٤١٢هـ ديسمبر ١٩٩١م، ص٢٥.

في القيادة رأينا أن ننشر بيانًا إلى كافة أو البقية من العصاة نعلن لهم فيه أن الحكومة الإيطالية الفاشيستية مستعدة أن تقبل استسلامهم وتسليم السلاح، وتضمن لهم الحياة.

وفي ١٧ سبتمبر ١٩٣١ م نشرت التعليمات الآتية من أجل توزيعها وهي:

١- أن نعطي للثوار الإحساس بسخاء الدولة الإيطالية الفاشيستية، وكذلك للسكان المحليين.

٢- إفراد الحالة أمام العالم الإسلامي وغير الإسلامي بكلِّ دقة، وإن تصرفاتنا لا لبس فيها؛ فهي من اختصاصنا، وكذلك من مسئولياتنا في كلِّ العمليات الحربية التي أجريت في برقة، ولهذا فقد قامت طائرتنا بقذف المنشورات على المناطق الجبلية وعلى المدن والقرى وبها البيان الآتي:

«إلى أدوار عمر المختار..

إنَّ الرئيس العظيم رئيس الثوار عمر المختار يحارب منذ عشرين سنة كان يقودكم فيها إلى الخراب والدمار والتأخر والانحطاط قبضت عليه قواتنا المظفرة قوات إيطاليا الفاشيستية، وقد حكمت عليه المحكمة الخاصة بالإعدام، وهذا انتقام من الله من أجل المساكين الذين بسببه تركوا أراضيهم ومسقط رأسهم»[1].

قال مترجم كتاب (برقة الهادئة) إبراهيم بن عامر عن هذا المنشور: «سبحان الله يا جنرال من الذي شرد الناس من أراضيهم؟! ومن الذي أفنى ثمانين ألف من المواطنين في المعتقلات؟! ألم تكن أنت الذي قضى على الناس وأموالهم؟! وفي نفس الصفحة تعترف بأن عمر المختار منذ عشرين سنة يحارب من أجل من؟! من أجل أن يطردك ويطرد قوات إيطاليا الغاصبة!!»[2].

واستمر غراسياني في المنشور: يا أهل الدور، إنَّ الحكومة الإيطالية الفاشيستية القوية والسخية تحذركم مرة أخرى.. إنه بعد وفاة واختفاء عمر المختار أنها مستعدة بأن تعفو عن كلِّ الذين يخضعون لحكمنا ويسلمون أسلحتهم، ومن غير هذا؛ فالحكومة كما قضت

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٩٤، ٢٩٥.
(٢) انظر: برقة الهادئة، ص٢٩٤، ٢٩٥.

على عمر المختار ستقضي على كلِّ الذين يواصلون العصيان أما عاجلًا أو آجلًا.. اسمعوا كلامي وسلموا أنفسكم، وفي نفس الوقت أصدرت الأوامر إلى قوات الجيش بعد أن قذفت الطائرات المنشورات بالاستمرار في القتال دون توقف، بل بذل أكثر من الجهد دون تردد حتى نجعل أمام العصاة (يعني: الثوار) الطريق الوحيد هو الاستسلام دون قيد أو شرط وخلاف إلقاء البيان بالطائرات ما يزيد عن ٣٥,٠٠٠ منشور وأكثر منها وزعت من الدوريات الكشافة على كل بئر وفي كل حقل ومرعى، وكل هذه الأماكن التي يمر بها العصاة (يعني: المجاهدين).

أما (المريشال بادوليو) من جانبه وجَّه إلى قوات الجيش البرقية التالية:

أوجِّه إلى قوات الجيش الشجاعة ببرقة أعظم الثناء وأحر تهنئتي على كلِّ ما قاموا به من عمل مجيد وانتصار باهر في هذه الحروب والنتيجة المرضية التي كنا نتمناها أن نهاية عمر المختار يجب ألا تؤثر على السير فوق الطريق التي رسمناها، وهي مطاردة العصاة أينما وجدوا واقتفاء أثرهم، وضربهم بكل شدة ودون هوادة أو رحمة إلى آخر واحد منهم، وليكن شعارنا: «لا توقف ولا ارتخاء.. واصلوا الزحف بكلِّ حماس متجرد، ولسوف نقضي على العصاة نهائيًّا»[1].

انظروا إخواني إلى هذا الحقد والبغض والكيد والمكر الذي ظهر من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، وصدق الله؛ حيث قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ..﴾ [البقرة: ٢١٧].

الحادي عشر: تعيين يوسف بورحيل قائد للحركة الجهادية

وبعد سقوط عمر المختار -رحمه الله- في الأسر تجمَّع المجاهدون بين يوم وليلة وأجمعوا على تنصيب الشيخ المجاهد (يوسف بورحيل) قائدًا للجهاد الإسلامي ووكيلًا عامًا للجهاد، وعلى إثر هذا التنصيب كلَّف الشيخ عبد الحميد العبار بالرحيل نحو شرق البلاد للقيام بحث الناس على الانخراط في جيش المجاهدين وحمل السلاح لمكافحة

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٢٩٦.

الجيوش والجهاد في سبيل العقيدة الإسلامية والدين.

واستقبل المجاهدون خبر استشهاد قائدهم العظيم بالعزيمة في الاستمرار ومواصلة للسير؛ إما الشهادة أو النصر على النصارى الحاقدين.

وواصلت الحكومة الإيطالية حملات الانتقام ضد أولئك الأبطال، وبرز في تلك المرحلة الحاسمة والتي ندر فيها وجود الرجال الشيوخ الفرسان والقادة الأبطال والميامين الكرام أجدادنا البواسل كل من عبد الحميد العبار، ويوسف بورحيل، وعصمان الشامي، وحشدت إيطاليا قواتها وواصلت شن حملاتها بشراسة منقطعة النظير، وبعد قتال عنيف عند الحدود المصرية قرب الأسلاك الشائكة فاجتاز الأسلاك بعض المجاهدين ببطولة منقطعة النظير وفروسية عالية القياس وقتل من قتل وأسر من أسر، وبقي الزعماء الأربعة يقاومون فقتل حمد بوخير الله أحد الزعماء، وقتل يوسف بورحيل، وجرح عصمان الشامي؛ فأخذ أسيرًا، وأما الفارس المغوار عبد الحميد العبار؛ فاستطاع أن يجتاز الأسلاك الشائكة بجواده رغم مطاردة القوات الإيطالية له[1].

وبهذه النهاية المؤلمة الحزينة انكسرت شوكة المجاهدين، وتعثرت خطواتهم وأخمدت حركة الجهاد، وذهب الأجداد تاركين خلفهم تاريخًا بطوليًا كفاحيًا جهاديًا رائعًا من أجل العقيدة والدين والشرف والكرامة؛ فعلى طريق الإسلام نحن سائرون، ومن أجل إعزاز دين الله عاملون، ورفع راية التوحيد مجاهدون، ونسأل الله المغفرة والرحمة والرضوان للأجداد والأبطال الكرام من أمثال رمضان السويحلي، وسليمان الباروني، والفضيل بوعمر، وأحمد الشريف السنوسي، وصالح الأطيوش، وإبراهيم الفيل، وأحمد سيف النصر، وسعدون، وعبد الحميد العبار، وغيرهم كثير.

إنَّ عبد الحميد العبار قد أمد الله في عمره، وقد شاهدته مرات عديدة، وأنا طفل لم أتجاوز الرابعة عشر، وكنت أراه كل يوم بعد صلاة الفجر أمام بيته في الحي الذي كنت أسكن فيه بمدينة بنغازي، والذي يسمَّى (مدينة الحدائق) بقرب مسجد السيد القاسم أحمد الشريف السنوسي المعروف بـ«مسجد الأنصار»، وكان منظره وهو يتلو كتاب الله،

(١) انظر: برقة الهادئة، ص٣٠٤.

وقد تقدَّمت به السن مؤثرًا في نفسي، وبلادنا في تلك الفترة عمَّها الفساد، وما كنا نرى ونحن أطفالًا مَن يحافظ على تلاوة القرآن الكريم بالكيفية المذكورة، وأخبرت والدي عن ذلك الذي أسر قلبي بتلاوته القرآن الكريم؛ فقال لي: يا بني ذاك الشيخ عبد الحميد العبار من كبار المجاهدين، وبدأت جدتي وهي من قبائل برقة من قبيلة الدرسة، وقد كانت ضمن المعتقلين بمعتقل المقرون تسرد لي أمورًا عجيبة عن جهاده وفروسيته وشجاعته ونجدته، ولا زالت صورته في ذهني إلى وقت كتابتي هذه، وعندما توفي -رحمه الله- كانت لوفاته مأتم مشهود، وحضرت جموع غفيرة من شرق البلاد وغربها، واستمر المأتم أيامًا عديدة؛ فرحمة الله على أولئك الأبطال.

الثاني عشر: اضطهاد الشعب

وباستشهاد عمر المختار ويوسف بورحيل، وأسر عصمان الشامي بعد جرحه، وهجرة عبد الحميد العبار إلى مصر، وقتل كثير من المجاهدين -انتهت حركة الجهاد الفعلية، ومع وجود معظم السكان في معسكرات الاعتقال حكم الإيطاليون البلد من الحصون المحاطة بالأسلاك الشائكة والدرويات والمصفحات والسيارات المسلحة والرشاشات والأنوار الكاشفة والطائرات، وفي يناير ١٩٣٢م أعلن بادوليو حاكم ليبيا العسكري الإيطالي أن الثورة قد انتهت كليةً وتمامًا، وأصرت إيطاليا على جعل ليبيا الشاطئ الرابع لإيطاليا، وأعلن موسوليني ذلك الطبل الأجوف سنة ١٩٣٤م بأن الحضارة الحقيقية هي ما تخلقها إيطاليا على الشاطئ الرابع لبحرنا، الحضارة الغربية بصفة عامة، والحضارة الفاشيستية بصفة خاصة)، وأخذ الرأسماليون الإيطاليون يقسّمون ممتلكات الشعب المسلم على بعضهم البعض، ويرحّلون الأُسر الإيطالية لاستيطان الكامل في ليبيا المسلمة، وأصبح الليبيون عمال مستأجرين وخدام للعائلات الإيطالية في مزارعهم التي نزعت من أيديهم وسلمت للإيطاليين، وأصدرت وسنت القوانين التي تخدم مصالح الحكومة الإيطالية في مصادرة الأملاك والاستيلاء عليها ونزعها من المواطنين بمبالغ زهيدة باسم المصلحة العامة، واهتمت إيطاليا بليبيا اهتمامًا بالغًا من أجل جعلها قطعة إيطالية لها دورها في توسيع مستعمراتها نحو الجزائر ومالطة وجبل طارق،

وشجعت إيطاليا هجرة الألوف من العائلات الإيطالية ضمن شروط لا بدَّ من توفرها في الراغبين بالاستيطان في ليبيا المسلمة، ومن هذه الشروط: كثرة عدد أفراد الأسرة بحيث تكون أكثر من سبعة، وأيضًا الصحة، والقراءة والكتابة، وأن تكون هذه الأسرة من أعضاء الحزب الفشيستي، أو ذات الوعي السياسي، وكان معظم القادمين هم من المناطق الفقيرة في شمال إيطاليا، وخرجوا من إيطاليا وسط دعاية عالمية، واستقبلوا في طرابلس وبنغازي استقبال الأبطال، ونقلوا في سيارات الجيش إلى القرى التي كانت جاهزة لهم، وكان بالبو يرافقهم من نابولي حتى القرى التي اغتصبوها من الشعب المسلم المسكين، وأعطيت كل أسرة منزلًا ومزرعةً جاهزةً للعمل، وكانت الحقول قد زرعت وفي كلِّ إسطبل كان يوجد بقرة وبغل، وأدوات وحبوب وعلف، وكذلك عربات وخشب للوقود، وفي كلِّ بيت كان هناك طعام يكفي لأسبوع[1]، حتى الكبريت والشمع كان موجودًا جاهزًا، وسخِّر الشعب الليبي المسلم لخدمة النصارى، واستعبد النصارى الحاقدون المسلمين في حربهم لليبيا، واهتموا بطرابلس ولبده وصبراته وشحات لجعلها دعاية للحكومة الإيطالية ودعوة انحلالية للخمور والدعارة في حوض البحر المتوسط على مستوى عالمي، وكانت أهداف الإمبراطورية الفاشيستية حسب تعبير الطبل الأجوف موسوليني (تغييرًا إقليميًّا حربيًّا تجاريًّا فحسب بل تغييرًا روحيًّا وأخلاقيًّا أيضًا)، وعمل على انسلاخ المسلمين من أخلاقهم ودينهم، ورضوا بأن يحصر دين المسلمين في الشعائر التعبدية، وقد أعلن بالبو مرة أنه (لن يكون في ليبيا حكام ومحكومون، وبدلًا من ذلك سيكون فيها إيطاليون كاثوليك، وإيطاليون مسلمون، متحدين من جماعة مشتركة كعناصر بناءة في تنظيم جبار للإمبراطورية الفاشيستية)، وحرموا الشعب الليبي المسلم من كلِّ حقوقه الطبيعية؛ فلا فرصة في التعلم والتعليم والثقافة والتثقيف، ولم يكن الفاشيستيون يرون نهاية لوجودهم في بلادنا العزيزة، وكانت الطبقة المثقفة الصغيرة إما في المنفى، أو لا صوت لها، وقد أخمدت كل معارضة بقسوة بالغة وأضعف البناء القبلي التقليدي بتعيين زعيم لكل عدد من القبائل، والفاشيستيون يأمرون والشعب المستضعف ينفِّذ بدون سؤال أو تعليل، وكان التعليل الكافي الذي ربى عليه الشعب (يجب عليك

(١) انظر: تاريخ ليبيا، ص١٥٨-١٦٣.

لأنه يجب عليك أن تفعل كذا وكذا)، وكانت السياسة التعليمية الإيطالية رسمت من أجل تخريج عدد كبير من التلاميذ الليبيين الذين يتكلمون الإيطالية، ويخلصون الولاء لإيطاليا[1].

وعملوا على القضاء على الأخلاق الإسلامية وبث روح الكثلكة في المدارس بين الأطفال، والقضاء على مصارف أهل البلاد والتعليم الديني، وأغلقوا الكتاتيب ودور العلم الوطنية، وأكثروا من إقامة دور الفحش، ومنعوا الليبيين من أداء فريضة الحج، وازداد امتهانهم للدين الإسلامي بدرجة شنيعة؛ فكان من أسوأ فعالهم أن ألقى قائد طبرق الإيطالي بالمصحف الشريف إلى الأرض، ثم أخذ يطأ عليه بقدمه على مشهد من جماعة من المسلمين، «إنكم معشر المسلمين، لا يمكن أن تصيروا بشرًا ما دام هذا الكتاب بين أيديكم».

وسخَّروا المسلمين واستعبدوهم في بناء الطرق والقلاع والمزارع والقرى، ونشط المبشرون الطليان في دعوتهم، وعمدت الحكومة إلى تشجِّيعهم، وأرغمت النساء على التنصير والزواج من الطليان.

وزاحموا أهالي البلاد في الصناعة والتجارة، وسيطروا عليها سيطرةً كاملةً، ومنعوا الناس من التظلُّم، وقيَّدوا حرياتهم، فمنعوهم من محادثة بعضهم بعضًا، ومن قراءة الصحف والمجلات والكتب، ومن مراسلة أقاربهم في الخارج، حتى صاروا في سجن داخل بلادهم محرومين من كلِّ صلة تربطهم بالعالم العربي والإسلامي.

لقد كان من أحلام الفاشيست إعادة الإمبراطورية الرومانية الغابرة، فقرَّروا لذلك امتلاك البلدان الإسلامية القائمة على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم إبادة أهل هذه البلاد وإفنائهم وتحويلها إلى رقعة لاتينية، وإنها لوقاحة منقطعة النظير أن يعمل شعب على إبادة شعوب ليحل محلها بالقوة، ولكن هذا هو منطق الصليبيين الحاقدين، وبلغ استهتارهم أنهم ألزموا خطباء الجمعة بالدعاء على المنابر لملك إيطاليا، عم نويل الثالث،

---

(١) انظر: تاريخ ليبيا، ص١٦٤-١٧٠.

وعندئذٍ امتنع المسلمون عن صلاة الجمعة، فلما هاج الرأي العام الإسلامي على هذا الفعل، استكتبوا الأئمة تكذيبًا بتوقيعاتهم، جاء فيه أن الدعاء كان بمحض إرادتهم، ومن تلقاء أنفسهم، ومن غير تدخُّل من جانب الحكومة الفاشيستية!!

فهل رأيت وقاحة أبلغ من هذه؟!

وفي عهد بادوليو صاروا يمنعون الناس من أداء الحج، ويضعون العراقيل في سبيلهم، حتى يجبروا على تركه.

كان أقبح ما فعل المارشال بادوليو أنه أمر بأن ترصف (الصالة) في قصره بالبلاط المنقوش عليه (محمد ﷺ)، وبعد انتهاء مرحلة الحرب المسلحة كما علمنا نفذ الشطر الثاني من برنامج إبادة الليبيين وإفنائهم، ونعني ذلك ما اغتصبه الطليان من الأراضي والمزارع وإعطائها للعائلات الفاشيستية بالقوة، وترك أصحاب الأرض الحقيقيين وأبناء البلاد يتضورون جوعًا ويخدمون هؤلاء الحاقدين خدمًا وعبيدًا[1].

وأراد الله أن ينتقم للمجاهدين من الطليان بقدرته وجبروته وعزته وحكمته النافذة التي لا يعلمها كثير من عباده، وبعد أن اطمأن النصارى الكاثوليك في ليبيا جاءت الحرب العالمية الثانية قدرًا من الله وتسليطًا من الله من ظالم على ظالم، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١٢٩].

وبعد أن اطمأنت الإمبراطورية الإيطالية إلى سلطانها، ودانت لها الأقطار الليبية من أقصاها إلى أقصاها من بعد استشهاد المختار عام ١٩٣١م حتى عام ١٩٤٢م.

أحد عشر عامًا من اليأس المطلق الذي لا يبشر بشيء من الأمل، أهل الحل والعقد الليبيين بعيدين عن البلاد.

نصف الشعب أو يزيد أهلكوا، أو أخرجوا من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، البقية الباقية مستضعفة في بلادها لا حول ولا قوة بها.

(١) انظر: حياة عمر المختار، ص١٧٢.

غراسياني ينفخ أوداجه، ويختال على أرض المسلمين يمنة ويسرة حيث شاء[1].

ثم جاء من ورائه بادوليو الماريشال العجوز ليتم قصة إبادة الشعب الليبي، ويسلِّم الأراضي إلى رعاع الطليان.

ليل هنا وليل هناك وظلام دامس وظلم مخيم ويأس مرير وذلة أصابت المسلمين وعزة زائفة سيطرت على النصارى الحاقدين، وكانت قصة خروج الطليان من بلادنا غريبة جدًّا ينبغي أن يتدبر فيها ليعلم الناس وليطمئنوا إلى عدل الله المنتقم الجبار، ولو بعد حين، وكانت قصة هزيمة إيطاليا في ليبيا بدأت في الحرب الثانية في سبتمبر، وحرصت إيطاليا أول الأمر على عدم دخولها حتى إذا رأت فرنسا تنهار على إثر الزحف الألماني الخاطف عليها أعلنت إيطاليا الحرب على إنكلترا وفرنسا في ١٠ يوليو ١٩٤٠م، وبدأ الجبل الأخضر يضيق حول عنق الإمبراطورية الجوفاء العرجاء، ودخلت إيطاليا الحرب بقيادة زعيمها موسوليني الطبل الأجوف طمعًا في الغنائم، وكانت توقن أن الأرض قد دانت لحليفتها ألمانيا، فأخلف الله ظنها وأفضى الأمر إلى زوالها نهائيًّا من الوجود كإمبراطورية صاحبة مستعمرات، واندحرت إيطاليا باندحار ألمانيا في شمال إفريقيا، ولم تغرب شمس يوم ٧ أبريل عام ١٩٤٣م حتى كانت جيوش ألمانيا وإيطاليا بقيادة رومل المنهزمة قد أخلت القطر الطرابلسي بأجمعه.

وكانت فرحة عظيمة شاملة عمت قلوب الناس وعبَّر عنها الملك السابق بقوله: «إني أحمد الله الذي جعلني أشهد خروج هؤلاء الطليان الظالمين من بلادنا»، وتدفق الليبيون إلى بلادهم التي ترعرعوا فيها، وأُخرجوا منها ظلمًا وزورًا، وهكذا استدار الزمان وسلَّط الله الإنكليز على الطليان ونزل العار بهم[2].

لقد أرادت إيطاليا إبادة المسلمين في ليبيا؛ فبادوا هم، وبقي المسلمون في ليبيا، وأراد غراسياني إعدام المختار؛ فهلك وبقي المختار علمًا وقدوةً لأجيال المسلمين.

* * *

(١) انظر: حياة عمر المختار، ص١٨٥.

(٢) انظر: حياة عمر المختار بتصرف، ص١٨٥ - ١٨٨.

أهم مراجع ومصادر البحث

١- أعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن القيم، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة ١٤٠٧هـ.

٢- إيطاليا والسنوسية، يوسيرا فبريتز، ترجمة: محمد السيد أبو مدين، نسخة مخطوطة بشعبة الوثائق، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي.

٣- برقة العربية أمس واليوم، محمد الطيب أحمد إدريس الأشهب، مطبعة الهواري، شارع محمد علي بمصر.

٤- برقة الدولة العربية الثامنة، زيادة نقولا، بيروت، طبعة عام ١٩٥٠م.

٥- برقة الهادئة، الجنرال رود لفو غراسياني، ترجمة: إبراهيم سالم بن عامر، دار مكتبة الأندلس، الطبعة الثالثة، يناير ١٩٨٠م.

٦- تاريخ ليبيا المعاصر، محمد عامر، منشورات جامعة دمشق، طبعة عام (١٤١١هـ-١٩٩١م).

٧- تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجاني، طرابلس، طبعة عام ١٩٧٢م.

٨- تاريخ حرب طرابلس، إبراهيم لطفي، مطبعة مؤسسة الأمير فاروق بنها ١٩٤٦م.

٩- تفسير القرآن الكريم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد العزيز غنيم، ومحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب، القاهرة.

١٠- جهاد الأبطال في طرابلس الغرب، الطاهر أحمد الزوي، ط٣، بيروت، دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٦٢م.

١١- جذور النضال العربي في ليبيا، محمد عبد الرزاق مناع، ط٢، بنغازي، عام ١٩٧٢م.

١٢- الحركة الوطنية شرق ليبيا، مصطفى هويدي، منشورات مركز دراسات جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طبعة ١٩٨٨م.

١٣- حاضر العالم الإسلامي، تأليف: لوثروب ستودارد الأمريكي، نقله إلى العربية:

الأستاذ عجاج نويهض، وعلّق عليه الأمير شكيب أرسلان، دار الفكر.

١٤ـ حياة عمر المختار، محمود شلبي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ-١٩٨٢م).

١٥ـ الدولة العربية المتحدة، أمين السعيد، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، عام ١٩٣٨م.

١٦ـ ذكريات عزام، الحلقة ٨، مجلة المصورة، القاهرة، عام (١٣٣٢هـ-١٩٥٠م).

١٧ـ رمضان السويحلي البطل الليبي الشهير بكفاحه للطليان، محمد مسعود فشيكه، دار الفرجاني، طرابلس - ليبيا، الطبعة الأولى، (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م).

١٨ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص، الناشر محمد السيد.

١٩ـ سنن الترمذي لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

٢٠ـ السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، د. عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

٢١ـ سنن النسائي، أحمد بن شعيب، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٢ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، تحقيق: د. أحمد بن سعد حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض السعودية.

٢٣ـ صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي، علي محمد الصَّلابي، دار البيارق، عمان، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ-١٩٩٨م).

٢٤ـ صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الطباعة العامرة، باستانبول، ١٣١٥هـ، المكتب الإسلامي، استانبول - تركيا.

٢٥ـ صحيح مسلم، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ-١٩٩١م).

٢٦-صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مصطفى بن حليم، وكالة الأهرام للتوزيع والنشر، مطابع الأهرام التجارية، قليوب.. مصر.

٢٧-الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨١م.

٢٨-عبد النبي بالخير، داهية السياسة وفارس الجهاد، محمد المرزوقي، الدار العربية للكتاب، (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م).

٢٩-الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ.

٣٠-عمر المختار.. نشأته وجهاده من (١٨٦٢م إلى ١٩٣١م) دراسات في حركة الجهاد الليبي، أعمال الندوة العلمية التي عقدها مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي بمناسبة الذكرى الخمسين لاستشهاد عمر المختار، إشراف: الدكتور عقيل محمد البربار، كلية الآداب والتربية- جامعة قاريونس.

٣١-عمر المختار، لمحمد الطيب الأشهب، سلسلة أبطال الجهاد والسياسة في ليبيا.

٣٢-الأعمال الشعرية الكاملة، أحمد شوقي، دار العودة، بيروت، طبعة ١٩٨٦م.

٣٣-قضية ليبيا، محمد الشنيطي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١م.

٣٤-قادة الغرب يقولون: دمروا الإسلام أبيدوا أهله، جلال العالم، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، طبعة (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).

٣٥-قواعد التعامل مع العلماء، د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، دار الوراق، السعودية، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).

٣٦-كفاح الليبيين في بلاد الشام، تيسر بن موسى.

٣٧-ليبيا اليوم، محمد الطيب الأشهب، بغداد، مطبعة أسعد، عام ١٩٥٥م.

٣٨-ليبيا في العصور الحديثة، نقولا زيادة، القاهرة، دار الرائد للطباعة، ١٩٦٦م.

٣٩-ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال، د. نقولا زيادة، جامعة الدول العربية، معهد الدراسات العربية العالية، طبعة عام ١٩٥٨م.

٤٠- ليبيا الحديثة، مجيدي خدوري، ترجمة: د. نقولا زيادة، دار الثقافة، بيروت.

٤١- المغني لابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (موفق الدين، أبو محمد) على مختصر الخرقي، ومعه الشرح الكبير على متن المقنع عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٣٩٢هـ-١٩٧٢م).

٤٢- المهذب في فقه مذاهب الإمام الشافعي، إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي الشيرازي – معه بأسفل الصفحة: النظم المستعذب في شرح غريب المهذب، محمد بن أحمد بن بطال الركبي، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

٤٣- ميلاد دولة ليبيا، محمد فؤاد شكري، مطبعة الاعتماد، القاهرة، عام ١٩٥٧م.

٤٤- معجم معارك الجهاد في ليبيا (١٩١١م-١٩٣١م)، ط٣، خليفة محمد التليبي، دار الثقافة، ١٩٧٣م.

٤٥- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى، السعودية.

٤٦- منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

٤٧- محطات من تاريخ ليبيا المعاصر، مذكرات محمد عثمان الصيد، إخراج طوب للاستثمار والخدمات، الرباط بالمغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٤٨- نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة، (١٤١٠هـ-١٩٨٩م)، مكتبة السوداي للتوزيع.

٤٩- النظام السياسي في الإسلام، د. محمد أبو فارس، دار الفرقان، عمان – الأردن، الطبعة الثانية، (١٤٠٧هـ-١٩٨٦م).

٥٠- وثائق جمعية عمر المختار، محمد بشير المغيربي، مؤسسة دار الهلال، الطبعة الأولى، يناير ١٩٩٣م.

الفهرس

* * *

العاشر من رمضان - تليفاكس: ٠١٥/٣٦٣٣١٤-٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة - ت: ٠٢٢٤٠٣٨١٣٧ - ٠٢٤٤٠١٧٠٥٣